

الْفَيْضُ الْمُبَارَكُ

فِي شَرْحِ

حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ

تأليف

سَيِّدُ الدُّنْيَا لَقِيُّ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَلِيمِ بْنِ تَيْمِيَّةٍ

(٦٦١ — ٥٧٢٨ = ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م)

صححه وعلق عليه وقدم له

الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد

الدَّارُ السُّنِّيَّةُ لِنُفَيْتٍ

بومباي . الهند

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الطبعة الاولى

١٤٠٧هـ-١٩٨٧م

الدارالسلفية

٦/٨ اى - حضرت تيرس انيكس

شارع شيخ حفيظ الدين

بومباى - ٤٠٠ ٠٠٨ الهند

هاتف : ٣٧٧٧٥٥ - ٣٩٦٧٤٧ - ٨٩٥٧١٠

تلکس : ٧٦٨٣٢ - ١١ . سلفان

برقيا : «السلفية»

AL - DARUSSALAFIAH

6/8 - A, HAZRAT TERRACE ANNEXE,
SHAIKH HAFIZUDDIN ROAD,
BYCULLA BRIDGE, BOMBAY - 400 008
TELEX: 011 76832 SALFIN
GRAM: «ALSALAFIAH»

الْفَيْضُ الرَّبَّانِيُّ

فِي شَرْحِ

حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى
المبعوث بجوامع الحكم ورحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه ومن دعا
بدعوته الى يوم الدين .

ما تقدمه اليوم هو دُرّة نفيسة من تأليف شيخ الإسلام تقى الدين
أحمد بن عبدالحليم — ابن تيمية رحمه الله تعالى . وهو يتضمن شرح
أحسن الأحاديث القدسية وأجمعها وأكملها . وهو حديث أبي ذر عن
رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى . وهذا الحديث
— كما أشار اليه شيخ الإسلام — يحتوى على قواعد الدين العظيمة في
العلوم والأعمال ، والأصول والفروع . فهو يتضمن جُلّ مسائل
الصفات والقدر والعمود الأساسى للعقيدة الصحيحة وهو ان كل
مانهى الله عنه راجع الى الظلم وكل ما أمر الله به راجع الى العدل .
والعدل والقسط هو ما يقوم به صلاح العباد والبلاد وإقامته أرسل
الله الرسل وأنزل الكتب . وأعظم العدل هو التوحيد وضده
— الشرك — أعظم الظلم . وهذا الحديث الجليل القدر يقوم بدعوة
الناس الى الابتعاد عن الظلم من أى نوع كان ، والإتصاف بالصفات
المؤدية الى العدل .

ثم ان هذا الحديث يوضح عظمة قدرة الله تعالى وسعة رحمته ،
وتفرد به بالملك والتدبير ، وغناؤه عن الخلق وافتقارهم اليه ، وينتهي
بالإعلان بأن الله تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئا بل يجازى كل
محسن بمحسناته فضلا منه واحسانا دون إيجاب أو إجبار ، ويعاقب
المسيئ على سيئاته عدلا منه .

كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ
بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

أو كما جاء في هذا الحديث :

« فَمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَن وَجَدَ غَيْرَ
ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »

ونحن إذ تقدم هذه الرسالة القيمة الى القراء نود أن نذكرهم بأننا
سوف نستمر — كما أعلننا من قبل — في نشر رسائل شيخ الإسلام في
صورة مناسبة لها مع التعليقات المفيدة .

وندعو الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لنشر كلام الشيخ وينفع به
عامة المسلمين وخاصتهم ويجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم
ويتقبله منا ، انه سميع قريب .

مختار أحمد الندوى

رئيس مجلس الادارة

الدار السلفية — بومباي

٢٠/ ذوالقعدة ١٤٠٧هـ

الموافق

١٦/ يوليو ١٩٨٧م

تقديم

هذه الرسالة النافعة ، العظيمة القدر التي تقدمها الى المكتبة الإسلامية عبارة عن شرح وتوضيح للمعاني الرفيعة ، والنكات البليغة ، والدروس السامية والعظات البالغة التي يحتوى عليها حديث أبي ذر القدسي ، الذي يرويه رسول الله ﷺ عن الله تبارك وتعالى ، ويعتبر من أجمع الأحاديث القدسية وأكملها . وكان أبودريس الخولاني — أحد رواته من التابعين الذين رووا هذا الحديث عن أبي ذر — كان اذا حدث به جثا على ركبتيه إعظاما وتقديرا له . وكان أحمد بن حنبل يقول : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

فهو كلام رب العالمين ، بلغه عنه الروح الأمين الى أفضل الخلق رحمة للعالمين ، رواه عنه امام الزاهدين وقدوة الصادقين ، أبودر الغفاري رضی الله عنه . ثم قدر الله أحكم الحاكمين أن يتولى كشف أسرارهِ ورموزه ، وابرار معانيهِ ولطائفهِ ، وتوضيح دقائقهِ وإشاراته ، امام المتقين ، وقدوة المصلحين ، وزعيم المجاهدين في سبيل نشر السنة وقمع البدعة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني رحمه الله تعالى .

والحديث رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة وغيرهم . وفيما يلي نصّ الحديث وطرقه المختلفة .

قال الامام مسلم في صحيحه^(١): حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن بن بهرام الدارمي ، حدثنا مروان (يعني ابن محمد الدمشقي) ، حدثنا سعيد ابن عبدالعزيز ، عن ربيعة بن يزيد ، عن أبي ادريس الخولاني ، عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى انه قال :

١ — يَا عِبَادِي ! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ مُحَرَّمًا بَيْنَكُمْ ، فَلَا تَظَالَمُوا ؛

٢ — يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ،

٣ — يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ ؛

٤ — يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ ؛

٥ — يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ؛

٦ — يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ؛

٧ — يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ؛

٨ — يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجِرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ؛

(١) كتاب البر والصلة (٣/١٩٩٤-١٩٩٥ رقم ٥٥) .

٩ - يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي ، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ؛

١٠ - يَا عِبَادِي ! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِلَيَّهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ .

قال مسلم : حدثني أبو بكر بن اسحاق ، حدثنا أبو مسهر ، حدثنا سعيد بن عبدالعزيز ، بهذا الإسناد غير أن مروان أتمها حديثا .

وقال أبو اسحاق^(٢) : حدثنا بهذا الحديث الحسن والحسين ابنا بشر ، ومحمد بن يحيى قالوا : حدثنا أبو مسهر فذكروا الحديث بطوله .

وأخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (ص ١٢٩ رقم ٤٩٠) عن أبي مسهر .

ثم ساق مسلم طريقا أخرى للحديث فقال :

حدثنا اسحاق بن ابراهيم ومحمد بن المثنى كلاهما عن عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة ، عن

(٢) أبو اسحاق هو ابراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه راوى صحيح مسلم ،

ذكر لى الحديث طريقا أخرى غير طريق مسلم .

وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» (الباب السابع والأربعون) والنووى فى «الأذكار» (ص ٣٦٨) والذهبى فى «سير أعلام النبلاء» (٤٨-٤٧/٢) بأسانيدهم عن أبي مسهر — فقالوا عن رسول الله ﷺ ، عن جبريل ، عن الله تبارك وتعالى انه قال » .

أبى قلابة ، عن أبي أسماء ، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى :

« انى حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِ الظَّلمِ وَعَلَى عِبَادِي فَلَا تَظَالَمُوا »
وساق الحديث بنحوه .

وحديث أبى ادريس الذى ذكرناه أتم من هذا .

وساق أحمد^(٣) لفظ حديث أبى أسماء بروايته ، عن عبدالرحمن
وعبدالصمد كلاهما عن همام :

« إِنِّى حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِ الظُّلْمِ وَعَلَى عِبَادِى ، أَلَا
فَلَا تَظَالَمُوا ، كُلُّ بَنَى آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ
يَسْتَغْفِرُنِى فَأَغْفِرُ لَهُ وَلَا أَبَالِى ،

وقال : يَا بَنَى آدَمَ ! كُلُّكُمْ كَانَ ضَالًّا إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ ،

وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًّا إِلَّا مَنْ كَسَوْتُ ،

وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعًا إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُ ،

وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمَانًا إِلَّا مَنْ سَقَيْتُ :

فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِيَكُمْ ،

وَاسْتَكْسُونِى أَكْسِيكُمْ ،

وَاسْتَطْعِمُونِى أَطْعِمَكُمْ ،

وَاسْتَسْقُونِى أَسْقِيكُمْ .

(٣) راجع «المسند» (١٦٠/٥) .

« يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَجَنَّتُمْ وَإِنْسَكُمْ ،
وَصَغِيرَكُمْ وَكَبِيرَكُمْ ، وَذَكَرَكُمْ وَأَنْشَأَكُمْ عَلَى قَلْبِ اتِّقَاكُمْ
رَجُلًا وَاحِدًا لَمْ تَزِيدُوا فِي مُلْكِي شَيْئًا ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ
وَأَخِرَكُمْ ، وَجَنَّتُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَصَغِيرَكُمْ وَكَبِيرَكُمْ ،
وَذَكَرَكُمْ وَأَنْشَأَكُمْ عَلَى قَلْبِ أَكْفَرِكُمْ رَجُلًا لَمْ تَنْقُصُوا مِنْ
مُلْكِي شَيْئًا إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ رَأْسُ الْمَخِيطِ مِنَ الْبَحْرِ »

ورواه الترمذى^(١) عن هناد قال حدثنا أبو الأحوص ، عن

(١) في «الزهد» (٤/٦٥٦-٦٥٧ رقم ٢٤٩٥) .

والحديث أخرجه هناد في «زهد» (٢/٤٥٦ رقم ٩٠٥) بنفس السند
وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/١٥٤) قال حدثنا عمار بن محمد — ابن أخت الثوري ،
عن ليث بن أبي سليم .

وليث ضعيف لكنه تابعه موسى بن المسيب الثقفي
أخرجه ابن ماجة في الزهد (٢/١٤٢٢ رقم ٤٢٥٧) عن عبدالله بن سعيد ، حدثنا
عبد بن سليمان ، عنه

وأحمد في «المسند» (٥/١٧٧) عن ابن غير عنه
والبيهقي في «شعب الإيمان» (الباب ٤٧) من طريق ابراهيم بن طهمان ، عن الأعمش
عنه به

وموسى بن المسيب ضعفه الأزدي . وقال ابن معين وأبو حاتم : صالح الحديث .
وقال ابن حجر في «التقريب» : صدوق ، لا يلتفت الى الأزدي في تضعيفه .
وله متابعة أخرى من عبد الحميد بن بهرام — أخرجه أحمد (٥/١٥٤) عن هاشم بن
القاسم ، عنه .

وذكر المزي ان هؤلاء الثلاثة توبعوا من سيار أبي الحكم ، وغيلان بن جرير وغير
واحد ، عن شهر بن حوشب ، عن عبدالرحمن بن غنم .

أما حديث شهر عن معديكرب عن أبي ذر فقال المزي : رواه عامر الأحول .
وقال ابن حجر : رواه عارم وأسد بن موسى ، عن مهدي بن ميمون عن غيلان
ابن جرير ، عن شهر ، عن معديكرب . راجع «تحفة الأشراف» (٩/١٧٩) .

ليث (يعني ابن أبي سليم) ، عن شهر بن حوشب ، عن عبدالرحمن بن غنم ، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ :

يقول الله عز وجل :

١ — يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ ؛

٢ — وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ فَسَلُونِي أَرْزُقَكُمْ ؛

٣ — وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ ؛

٤ — فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنَّنِي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ ، فَاسْتَغْفِرْنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أَبَالِي ؛

٥ — وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحْيَكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ عَبْدٍ مِّنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ؛

٦ — وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحْيَكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشَقَى قَلْبَ عَبْدٍ مِّنْ عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ؛

٧ — وَلَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَحْيَكُمْ وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِّنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ، فَأَعْطِيتُ كُلَّ سَائِلٍ مِّنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَعَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ .

ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَّاجِدٌ ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ . عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ . إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وروى بعضهم هذا الحديث
عن شهر بن حوشب ، عن معديكرب ، عن أبي ذر عن النبي ﷺ
نحوه .

وروى عن أبي موسى عن النبي ﷺ انه قال :

ان الله تعالى يقول :

« يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ ،

وَضَعِيفٌ إِلَّا مَنْ قَوَّيْتُ ،

وَفَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ ،

فَسَلُّونِي أُعْطِكُمْ .

فَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ ، وَحَيَّكُمْ
وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطَّبَكُمْ وَيَا بَسَّكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى قَلْبٍ أَتَقَى عَبْدٌ
مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ؛

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَجَنَّتْكُمْ وَإِنْسَكُمْ ، وَحَيَّكُمْ
وَمَيِّتَكُمْ ، وَرَطَّبَكُمْ وَيَا بَسَّكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى قَلْبٍ أَفْجَرِ
عَبْدٍ هُوَ لِي مَا تَقْصُوا مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ؛

ذَلِكَ بَأَنِّي وَاحِدٌ ، عَذَابِي كَلَامٌ ، وَرَحْمَتِي كَلَامٌ ،

فَمَنْ أَيَقْنَنَ بِقُدْرَتِي عَلَى الْمَغْفِرَةِ لَمْ يَتَعَاظَمْ فِي نَفْسِي
أَنْ أَغْفِرَ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَثُرَتْ . » .

رواه الطبراني في «الأوسط والكبير» وفيه عبد الملك بن هارون بن
عنبرة ، وهو مجمع على ضعفه^(١) .

قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٠/١٠) .

فهذا حديث قدسي . والحديث القدسي : هو ما يحكيه رسول الله
ﷺ عن الله عز وجل . فكلماته من عند الرسول ﷺ ، ولكن المعنى
— أو الرسالة التي يتضمنها الحديث — من عند الله تبارك وتعالى .

و«القدسي» نسبة الى القدس وهو الطهارة والتنزيه فهي نسبة
تكريم واجلال .

ويطلق على مثل هذه الأحاديث «الأحاديث الالهية»
و«الأحاديث الربانية» أيضا .

ولرواية هذه الأحاديث طريقان :

(١) قلت (عبد الملك بن هارون بن عنبرة ذكره الذهبي في «الميزان» (٦٦٧-٦٦٦/٢) وقال : قال الدارقطني : هما — هو وأبوه — ضعيفان . وقال أحمد : عبد الملك ضعيف . وقال يحيى : كذاب . وقال أبو حاتم : متروك ، ذاهب الحديث . وقال ابن حبان : يضع الحديث . وقال السعدى : عبد الملك بن هارون دجال كذاب .

وقال صالح بن محمد : عامة حديثه كذب ، وأبوه ثقة . وضعفه يعقوب بن سفيان أيضا .

راجع «المعرفة والتاريخ» (٥٦/٣) «الجرح والتعديل» (٣٧٤/٥) «الضعفاء والمتروكون» (٣٦٢، ٢٨٩ رقم ٣٦٢) «سولات البرقاني» للدارقطني (٤٠ رقم ٢٥٢) «المجروحين» (١٢٨/٢) «الضعفاء» للعقيلي (٣٨/٣) «الكامل» (١٩٤٢/٥) «لسان الميزان» (٧٢/٤) .

١ — ان يقول الراوى : «قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل» ويقال ان هذه عبارة السلف .

٢ — ان يقول الراوى : قال رسول الله ﷺ : «قال الله تعالى» أو «ان الله تعالى يقول» أو «يقول الله تعالى» .

ويروى أحيانا بواسطة جبريل بين النبي ﷺ وبين الله تبارك وتعالى .

ولما كانت هناك مظنة التخليط بين الحديث القدسى والقرآن الكريم حيث ان كليهما من عند الله تبارك وتعالى ، تعرّض العلماء لتوضيح الفرق بين الاثنين ، وذكروا في ذلك وجوها :

١ — ان القرآن جميعه قطعى الثبوت ، لأنه نُقل بالتواتر وقد تكفل الله بحفظه وصيانيته من أىّ تغيير أو تبديل أو تحريف . فأعلن في كتابه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) .

والحديث القدسى ليس كذلك فهو ظنى الثبوت ومعظم الأحاديث القدسية أخبار آحاد تخضع لقواعد القبول والرد التى وضعها العلماء . وبناء على ذلك يكون منها الصحيح والضعيف . ونسبته الى الله تبارك وتعالى لاتعنى صحته كما قديتوهمه البعض .

٢ — ان القرآن معجزة باقية على مرّ العصور ، بخلاف الحديث القدسى .

٣ — يختص القرآن بأحكام شرعية لاتنطبق على الحديث القدسى :

(١) سورة الحجر (٩/١٥) .

منها : ان القرآن تحرم روايته بالمعنى .

ومنها : ان له ولاجزائه أسماء خاصة ، لا يجوز اطلاقها على غيره كالقرآن ، والسورة والآية .

ومنها : ان مجرد تلاوته أمر تعبدى ويؤجر قارئه بكل حرف عشر حسنات كما ورد فى الحديث الصحيح .

ومنها : ان المحدث لا يجوز له مسُّ القرآن ، والجنب لا يجوز له تلاوته .

٤ — القرآن ماكان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلىّ . وأما الحديث القدسى فهو ماكان لفظه من عند رسول الله ﷺ ومعناه من عند الله تبارك وتعالى بالالهام أو المنام .

والواقع ان الحديث النبوى يكون معناه أيضا من عند الله تبارك وتعالى . فالله يقول :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴾^(٢) .

فالتحقيق ان الحديث القدسى يختلف عن الحديث النبوى فى ان القول فى الأول منسوب الى الله تعالى بخلاف الثانى .

ولزيادة التوضيح نريد أن نشرح الطرق التى اختارها الله تبارك وتعالى لإعلام أنبيائه . قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۖ ﴾^(٣)

(٢) سورة النجم (٥٣/٤) .

(٣) سورة الشورى (٤٢/٥١) .

فبيّن الله تعالى ان هناك ثلاث كيفيات يتم بها إبلاغ توجيهات الله لرسله :

١ — الوحي — وهو هنا يعنى الالهام أى القاء الفكرة فى قلب النبي دفعة . ويكون هذا الالهام فى المنام كما يكون فى اليقظة .

٢ — الكلام من وراء حجاب : أى يُكَلِّمُ الربُّ النَّبِيَّ ، فيسمع النبي كلامه ولا يراه ، كما حصل لموسى عليه السلام حين مانودى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ وكما كلمه لما جاء لميقاته وقال : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » قال : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ .

وحصل ذلك لنبيّنا ﷺ فى ليلة المعراج .

٣ — إعلام الله لنبيّه ما يريد ابلاغه اليه بواسطة الملك . ثم الاعلام بواسطة الملك يقع على وجهين :

○ أحيانا يشاهد النبيُّ الملكَ عند الوحي ، إما على صورته الحقيقية — وهذا نادر . وفى حديث عائشة عند مسلم^(٤) ان النبي ﷺ لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرّتين . والظاهر انه لم يكن فى هذا اللقاء ابلاغ ؛

وإما ممثلاً فى صورة بشر ، كما كان جبريل يتمثل للنبي ﷺ فى صورة دحية الكلبي .

○ وتارة لا يرى النبي الملك عند الوحي ، وانما يسمع دويّاً وصلصلةً شديدة لا يعلم كنهها ، فيعتريه حالةٌ روحيةٌ غير عادية لا يدرك الحاضرون منها إلا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتفصّد جبينه عرقاً .

(٤) كتاب الايمان (١/١٥٩ رقم ٢٨٧) .

وقد روى البخارى^(٥) عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ :

« أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس — وهو أشده على — فيفصم عنى وقد وعيته عنه ما قال ؛ وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وقال العلماء انه لا بد ان توجد مناسبة بين المبلغ والمبلغ اليه ولذلك كان تنزيل القرآن على النبي ﷺ يأخذ شكلين :

أحدهما : ان النبي ﷺ ينخلع من صورة البشرية الى صورة الملكية ويأخذه من جبريل .

والثانى : أن ينخلع الملك الى البشرية حتى يأخذه الرسول منه .

والأول أصعب الحالين^(٦) .

فالقرآن لفظه ومعناه من الله تبارك وتعالى وكان لنزوله على النبي ﷺ كيفية خاصة .

أما الحديث القدسى فيكون فيه المعنى أو الفكرة فقط من الله تبارك وتعالى ويبلغه الرسول ﷺ بألفاظه . وهذه الفكرة أحيانا تأتى بالوحي وأحيانا فى المنام .

(٥) باب بدء الوحي (٣-٢/١) .

(٦) راجع «فتح البارى» (٢٠/١) و«الاتقان» (٤٤/١) .

والأحاديث القدسية لاتتعلق بالأحكام التكليفية ، ولاتكون لمعالجة واقعة معينة ، أو حل مشكلة خاصة أو عامة ، كما هو الحال في الحديث النبوى ، بل هى تتضمن توجيهات ربانية ممايتعلق بتوطيد عقيدة التوحيد ، وتوضيح كمال قدرة الله وعظمته ، وبتصحيح السلوك فى المجتمع طلبا لمرضاة الله سبحانه وتعالى .

فالأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى فهى :

١ — تبين عظمته ، وتقوم بالاعلان عن كبريائه ، وعزته وجلاله كما جاء فى الحديث الذى قال فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى انه قال :

« إن العزَّ إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما عذبتُهُ »^(٧)

وكما جاء فى حديث أبى ذرّ .

٢ — تقوم ببيان سعة رحمة الله تعالى ، وكمال فضله وكرمه وجوده وسخائه .

وأحسن مثال لذلك حديث أبى هريرة^(٨) عن رسول الله ﷺ قال قال الله تبارك وتعالى :

« أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عين رأتْ ولا أُذُنْ سمِعتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ »

وفى حديث آخر^(٩) : ان الله تعالى يقول :

« اذا أخذتُ كريمَتى عبدي فى الدنيا لم يكن له جزاءٌ عندي إلا الجنة »

(٧) أخرجه أبوداود(٤/٣٥٠ رقم٤٠٩٠) وابن ماجه(١٣٩٧/١٠٠ رقم٤١٧٤) وأحمد(٢/٢٤٨/٣٧٦) .

(٨) أخرجه البخارى(٢١/٦) ومسلم فى الجنة(٣/٢١٧٥ رقم٤) وغيرهما .

(٩) رواه الترمذى فى الزهد(٤/٦٢٠ رقم٢٤٠٠) .

٣ — تبين سعة ملكه ، وعظمة قدرته ، وكثرة عطائه ، واستغناؤه عن الخلق ، واحتياجهم اليه .

ففى حديث قال الله تبارك وتعالى :
« يُؤذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسْبُ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ »^(١٠)

والحاصل ان الأحاديث القدسية تقوم باظهار قدرة الله وعظمته وسعة ملكه ، وعزته وجبروته ، وغالبها تأتى فى أسلوب جميل يجذب القلوب ويرقق الطبائع . وقلما نجد فيها وعيداً أو ترهيباً من نوع مانجده فى القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية .

انظر مثلاً قوله تعالى فى حديث قدسى^(١١) :
« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . وما تقرب الى عبدي بشيء أحب الى مما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببتة كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيننه . وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »

فالجملة الأولى منه تتضمن تهديداً بالغاً ، ولكن الجمل التالية مشحونة ببيان اللطف والاحسان ، والتقدير والتحسين الذى به يقبل الله على عباده المقربين .

(١٠) رواه البخارى (٤١/٦) ومسلم (١٧٦٢/٢) رقم (٢) .

(١١) رواه البخارى (١٩٠/٧) .

أين هذا من قوله عز وجل في القرآن :
﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (١٣)

أو قول النبي ﷺ في حديثه :
« ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَىٰ بِهَا أَدْنَاهُمْ . فَمَنْ أَخْضَرَ
مُسْلِمًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ
اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا » (١٣)

حديث أبي ذر هو أطول حديث قدسي وأجمعه فقد تضمن قواعد
عظيمة في الدين في العلوم والأعمال والأصول والفروع . وقام شيخ
الإسلام ابن تيمية في هذه الرسالة بالإشارة الى هذا القواعد ، والكشف
عن المعاني واللطائف التي يشتمل عليها . وقال ان الجملة الأولى منه
وهو قوله : « اني حرمت الظلم على نفسي » يتضمن جل مسائل
الصفات والقدر . وذلك ان فرقة من المسلمين قاموا بتشبيه الخالق
بالمخلوق فأوجبوا عليه أشياء ، وحرّموا أخرى فقالوا ان الله يجب عليه
فعل ما هو الأصلح للعباد ، كما يجب عليه جزاء المحسن باحسانه
وعقوبة المذنب بذنبه ، وانه يحرم عليه ان لا يعاقب المجرم أو ان يحرم
المحسن جزاء حسناته .

ثم انهم منعوا أن يكون الله قادرا على خلق افعال العباد فقالوا لو
ان الله خلق الظلم لكان ظلما . وهذا تدليس منهم . فالناس يفهمون
ان الظالم من قام بفعل الظلم ، وليس من خلق الظلم . وليس كل من

(١٢) سورة النساء (٤/١١٥) .

(١٣) رواه البخاري (١٢٢/٢) ومسلم في الحج (١/٩٩٩ رقم ٤٧٠)

خلق شيئاً يتصف به . هذا لا يقول به عاقل .

وذهب بعض الناس الى أن الظلم من الله تعالى ممتنع لذاته ولكن الحديث ينطق بصراحة ان الله حَرَّمَ على نفسه الظلم وهذا في مقام المدح له ، ولا يستوجب أحد المدح بترك الشيء الذى ليست له قدرة على فعله . فالله تعالى قادر على كل شيء فاذا أخبر عن نفسه انه كتب على نفسه الرحمة أو حَرَّمَ على نفسه الظلم فعناه انه يحب الرحمة ويريدها ، ويرضاها ويوقعها بمن يشاء ، أو انه يبغض الظلم ويكرهه ولا يريد ان يوقعه على أحد .

والظلم الذى حرّمه الله على نفسه هو مثل ان يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البرئ على ما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنوب غيره، أو يحكم بين الناس بغير القسط .

وقد أشار الحديث الى شيء آخر هام هو ان الظلم الذى أمر الله عباده بالابتعاد عنه هو كل ما نهى الله عنه ، وضده العدل وهو كل ما أمر الله به ان يفعل . وأصل العدل هو التوحيد وأصل الظلم هو الشرك . فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدل ، والذنوب التى فيها تفريط أو عدوان فى حقوق الله تعالى وحقوق عباده هى فساد وظلم . ولهذا كان العدل أمراً واجباً فى كل شيء وعلى كل أحد ، والظلم محرماً فى كل شيء ولكل أحد .

وهكذا اشتمل هذا الحديث على قواعد الدين الأساسية .

ثم بيّن الحديث ان العباد كلهم محتاجون الى الله ، لا يقدرّون على جلب منفعة أو دفع مضرة لأنفسهم إلا بعون الله وتيسيره . وجلب المنفعة ودفع المضرة اما ان يكون فى الدين أو فى الدنيا . وهذا ينحصر فى أربعة أقسام :

○ فجلب المنفعة في الدين ينحصر في الهداية ،

○ وجلب المنفعة في الدنيا ينحصر في الطعام ،

○ ودفع المضرة في الدين يكون بالمغفرة ،

○ ودفع المضرة في الدنيا يكون بالكسوة .

وهذه الأقسام الأربعة اشتمل عليها هذا الحديث وصرّح بأنه لا يمكن لإنسان الوصول اليها والفوز بها إلا برحمة من الله وفضل .

وقد قام شيخ الإسلام بشرح معنى «الهداية» بحيث لا يترك مجالا لشبهة فقال :

ان الهدى أربعة أقسام :

١ — الهداية الى مصالح الدنيا . وهذا مشترك بين الحيوان والانسان ، وبين المؤمن والكافر فكل هداه الله لرعاية مصالحه .

٢ — الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ما ينفعهم بنصب الأدلة وارسال الرسل وانزال الكتب . وهذا أيضا مشترك بين جميع المكلفين ووصف الله نبيه ﷺ بالهادى على هذا المعنى .

٣ — الهدى بمعنى جعل الهدى في القلوب أو كما يقال : الايصال الى المطلوب . وهذا ما يسمى المتكلمون بخلق القدرة على الطاعة . وهذا هو الذى نفى الله عن نبيه ﷺ حين ما قال :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١٤)

وهذا ما ينكره المعتزلة فعندهم ان العبد هو الذى يهدى نفسه .

فالله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من ارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة العلة . فلا مزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى .

٤ — الهدى فى الآخرة . وهو يتبع العمل فى الدنيا ان خيراً فخير وان شراً فشر ، كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴾^(١٥)

وكما قال :

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾^(١٦)

ثم ان الحديث يأمر الناس بالتوكل على الله فى الرزق ولكن التوكل لا يعنى طرح الأسباب المودية الى تحصيل الرزق فقد أخطأ من ظن ان تحصيل الأسباب ينافى التوكل .

والحديث يشير أيضاً الى سعة مغفرته تبارك وتعالى فلا يعظم عليه ذنب . وهنا يشير شيخ الإسلام الى ان الله تعالى اذا شاء غفر ذنوب عباده بدون توبة وهو قد وعد فى كتابه انه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

ومغفرة الله تعالى لذنوب عباده ربما تأخذ شكلاً آخر وهو ان يخفف العذاب أو يؤخر الى أجل مسمى .

(١٥) سورة يونس (٩/١٠) .

(١٦) سورة الصافات (٢٢/٢٣-٢٢) .

والحديث ينتهى بتحقيق ماسبق فيه من العدل والاحسان من
الله تعالى . فالجزاء على الأعمال الصالحة احسان من الله ونعمة
يستحق عليها الحمد لأنه هو الموفق لها وعقابه على السيئات عدلٌ منه
استحقه العبد بفعله وهذا كما قال الله تعالى فى كتابه :
﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ^(١٧)

هذا الشرح المفيد موجود فى مجموع الفتاوى لشيخ
الإسلام (١٨/١٣٦-٢٠٩) ونشرت ضمن الرسائل المنيرية (٣/٢٠٥-٢٤٦)
ولكن الناشر لم يهتم بتصحيح العبارة ، بل نشر الرسالة كما كانت مع
أخطائها . فصحت ما عثرت عليه من الأخطاء وخرجت الأحاديث
والآثار وقت بالتعليق على المواضع التى كانت فى حاجة الى
التوضيح .

وادعو الله العلى القدير أن ينفع به عامة المسلمين ويجعله خالصا
لوجهه الكريم .

ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم .

وصلى الله على نبيه الكريم .

وأخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

الراجى عفو ربه

عبدالعالى عبدالحميد حامد

شرح حديث أبي ذر رضى الله عنه
لشيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية الحرانى
المتوفى سنة ٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية عن معنى حديث
أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى
أنه قال :

« يَا عِبَادِي ! إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ
بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا . يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ
إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهِدُونِي أَهْدِكُمْ . يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ
جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ . يَا عِبَادِي !
كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكَسُونِي أَكْسِكُمْ .
يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ
لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي
فَتَنْفَعُونِي . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ
وَجَنَّتْكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ
ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ

وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ
مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا . يَا عِبَادِي ! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ
وَأَخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي
فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا
عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ . يَا عِبَادِي !
إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِلَيْهَا ،
فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَمَنْ
وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »

فأجاب رضى الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما قوله تعالى : « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي »
ففيه مسألتان كبيرتان ، كل منهما ذات شعب وفروع :

إحداها في الظُّلْم الذى حرَّمه الله على نفسه ، ونفاه عن نفسه
بقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(٣) .

(١) وردت هذه اللفظة في ثلاثة مواضع : سورة هود (١١/١٠١) ، سورة
النحل (١٦/١١٨) ، سورة الزخرف (٤٣/٧٦) .

(٢) سورة الكهف (١٨/٤٩) .

(٣) سورة حم السجدة (٤١/٤٦) . وورد « وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » في سورة
آل عمران (٣/١٨٢) ، والأَنْفَال (٨/٥١) ، والحج (٢٢/١٠) وجاء « وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ
لِلْعَبِيدِ » في سورة ق (٥٠/٢٩) .

وقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾^(٤) ؛

وقوله :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَتِيلًا ﴾^(٥) .

ونفى ارادته بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٦)

وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾^(٧) .

ونفى خوف العباد له بقوله :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾^(٨)

فإن الناس تنازعوا في معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ، ووسط بينهما ، وخيار الأمور أوسطها ، وذلك بسبب البحث في القدر ومجامعته للشرع . إذ الخوض في ذلك بغير علم تام أوجب ضلال عامة الأمم ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أصحابه عن التنازع فيه .

فذهب المكذّبون بالقدر ، القائلون بأن الله لم يخلق

(٤) سورة النساء (٤٠/٤) .

(٥) نفس السورة (٧٧/٤) .

(٦) سورة آل عمران (١٠٨/٣) .

(٧) سورة المؤمن (٣١/٤٠) .

(٨) سورة طه (١١٢/٢٠) .

أفعال العباد ، ولم يُرد أن يكون إلا ما أمر بأن يكون ؛ وغلاتهم المكذبون بتقدم علم الله وكتابه بما سيكون من أفعال العباد من المعتزلة وغيرهم — الى أن الظلم منه هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض . وشبهوه ومثّلوه في الأفعال بأفعال العباد حتى كانوا هم ممثلة الأفعال . وضربوا لله الأمثال ، ولم يجعلوا له المثل الأعلى ، بل أوجبوا عليه وحرّموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرّم بقياسه على العباد ، واثبات الحكم في الأصل بالرأى .

وقالوا عن هذا : إذا أمر العبد ولم يُعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الإعانة كان ظالما له ؛ والتزموا أنه لا يقدر أن يهدى ضالّا ، كما قالوا أنه لا يقدر أن يضلّ مهتديا .

وقالوا عن هذا : إذا أمر اثنين بأمر واحد ، وخصّ أحدهما بإعانتة على فعل المأمور كان ظالما ؛ الى أمثال ذلك من الأمور التي هي من باب الفضل والإحسان جعلوا تركه لها ظلما ، وكذلك ظنّوا أن التعذيب لمن كان فعله مقدّرا ظلّم له . ولم يُفرّقوا بين التعذيب لمن قام به سبب استحقاق ذلك ومن لم يقيم . وإن كان ذلك الاستحقاق خلقه لحكمة أخرى عامّة أو خاصّة .

وهذا الموضع زلّت فيه أقدام ، وضلّت فيه أفهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المُثبتين للقدر فقالوا ليس للظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الأمور الممتنعة لذاتها ، فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا أن يقال أنه هو تارك له باختياره ومشيّئته ، وإنما هو من باب الجمع بين الضدّين ، وجعل الجسم الواحد في مكانين ، وقلب القديم محدثا والمحدث قديما ؛ وإلا فمهما قدر في

الذهن ، وكان وجوده ممكنا ، والله قادرٌ عليه فليس بظلم منه سواء فعله أو لم يفعله .

وتلقى هذا القول عن هؤلاء طوائف من أهل الاثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ومن شُراح الحديث ونحوهم وفسّروا هذا الحديث بما ينبغي على هذا القول ، وربما تعلّقوا بظاهر من أقوال مأثورة كما روينا عن إياس بن معاوية أنه قال : مانظرت^(٩) بعقلي كلّهُ أحدا إلا القدرية . قلتُ لهم : ما الظلم ؟ قالوا : أن تأخذَ ما ليس لك أو أن تتصرّف فيما ليس لك . قلت : فالله كل شيء .

وليس هذا من إياس إلا ليبيّن ان التصرفات الواقعة هي في ملكه فلا يكون ظلما بموجب حدّهم وهذا مما لانزع

(٩) وفي الرسائل المنيرية « ومانظرت » .

وإياس بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني ، أبووائل البصري (م ١٢٢هـ) تولى قضاء البصرة . وكان عاقلا فطنا ليبيّا ، كان يضرب به المثل في الذكاء والدهاء والسودد والعقل . له أخبار مشهورة وحكايات منشورة في كتب الاسام والأدب مثل كتب الجاحظ والعقد الفريد ومحاضرات الراغب ونحوها .

له ترجمة مبسّطة في «تهذيب الكمال» للمزى (٤٠٧/٣-٤٤٠) وقال الدكتور بشار عواد : ألف المدائني كتابا في أخباره ، ذكره ابن النديم (١٥٢) كما ألف عبدالعزيز ابن يحيى بن أحمد بن عيسى كتابا في أخباره ثم قال : ومن احفل التراجم وأوسعها هي ترجمة حافظ الشام أبي القاسم ابن عساكر له في «تاريخ دمشق» وعليها كان جلّ اعتماد المزى في أخباره .

وأخرج المزى قوله هذا في «التهذيب» (٤١٦/٣) ، وأبونعيم في «الحلية» (١٢٤/١) وذكره ابن عبدربه في «العقد الفريد» (٣٧٨/٢) .

وانظر ترجمته أيضا في «طبقات ابن سعد» (٢٣٤/٧) و«الحلية» (١٢٣/٣-١٢٥) «ابن خلكان» (٢٤٧/١-٢٥٠، ٤١٨-٤٢٠) .

بين أهل الاثبات فيه ، فانهم مُتَّفِقُونَ مع أهل الإيمان بالقدر على أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ اللهُ فهو عدلٌ .

وفي حديث الكرب الذى رواه الإمام أحمد^(١٠) عن عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ :

« مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ : «اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابْنُ أَمَّتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ ، عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ . أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي » ، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ ، وَابْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا »

قالوا يا رسول الله ! أَفَلَا تَتَعَلَّمُهُنَّ ؟ قال :
« بلى ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »

(١٠) أخرجه في «المسند» (٤٥٢-٣٩١/١) من طريق أبي سلمة الجهني ، عن القاسم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود ، عن أبيه ، عن عبدالله .
ومن نفس الطريق أخرجه أبو يعلى ، وابن حبان (ص ٥٨٩ رقم ٢٣٧٢) والحاكم في «المستدرک» (٥١٠-٥٠٩/١) وقال صحيح على شرط مسلم إن سلم من ارسال عبدالرحمن بن عبدالله ، فانه مختلف في سماعه من أبيه — وتعبه الذهبي فقال : وأبو سلمة لا يدرى من هو ؟ ولا رواية له في الكتب الستة .
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/١٠) وقال رواه أحمد وأبو يعلى والبخاري ورجال أحمد وأبو يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان .
وقال أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» اسناده صحيح . راجع «المسند» (٢٦٦-٢٦٧ رقم ٣٧١٢) .

فقدَيَّينَ أن كلَّ قضائه في عبده عدلٌ ولهذا يقال : كلُّ نعمة منه فضلٌ . وكلُّ نعمةٍ منه عدلٌ .

ويقال : أطعْتُك بفضلِكَ والمنّة لك ، وعَصَيْتُكَ بعلمِكَ أو بعَدْلِكَ والحُجَّةُ لك ، فاسألك بوجوب حُجَّتِكَ علىَّ وانقطاع حُجَّتِي إلَّا ماغفرت لي .

وهذه المناظرة من إياس كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن^(١١) لغيلان^(١٢) حين قال له غيلان : نشدْتُكَ اللهَ أترى اللهَ يُحبُّ أن يُعَصِيَ ؟ فقال نشدْتُكَ اللهَ أترى اللهَ يُعَصِي قسراً يعنى قهراً ؟ فكأنما ألَقَمَه حجراً فإن قوله «يُحبُّ أن يُعَصِي» لفظ فيه اجمال وقد لا يتأتى في المناظرة تفسير المجملات خوفاً من لدن الخصم ، فيؤتَى بالواضحات

(١١) ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الإمام ، أبو عثمان المعروف بريعة الرأي (م ١٣٦هـ) مفتي المدينة ، وعالم الوقت . كان من أئمة الاجتهاد ، وعليه تفقه الإمام مالك . وكان يجلس اليه وجوه الناس ، وكان يحصى في مجلسه أربعون معتمداً . وكان مالك يقول بعد وفاته : ذهبت حلالة الفقه منذ مات ربيعة . ترجمته في «تاريخ بغداد» (٤٢٠-٤٢٦) «وفيات الأعيان» (٢٨٨/٢-٢٩٠) «السير» (٨٩/٦-٩٦) «تهذيب التهذيب» (٢٥٨/٣) «شذرات» (١٩٤/١) .

(١٢) غيلان بن مسلم الدمشقي كاتب من البلغاء ، تنسب اليه فرقة « الغيلانية » من القدرية . وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا اليه بعد معبد الجهني . جرت بينه وبين الأوزاعي مناظرة في حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك فأفتى الأوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان .

راجع «الفرق بين الفرق» (١٤، ٩٦) و«الأعلام» للزركلي (١٢٤/٥) و«لسان الميزان» (٤٢٤/٤) .

وانظر محاورته مع ربيعة في «العقد الفريد» (٢٧٧/٢) وكذلك مناظرة الأوزاعي معه (٣٧٩/٢-٣٨٠) .

فقال : أَفْتَرَاهُ يُعْصَى قِسْرًا ؟ فَإِنَّ هَذَا الزَّامُ لَهُ بِالْعِجْزِ الَّذِي هُوَ لَازِمٌ
لِلْقُدْرَةِ وَلَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُمْ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ الْفَلَّاسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَكَذَلِكَ
إِيَّاسُ رَأَى أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ الْمُنَاطِقَ لِحَدِّهِمْ خَاصِّمْ لَهُمْ وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِي
التَّفْصِيلِ الَّذِي يَطُولُ وَبِالْجُمْلَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴾ ^(١٣)

قال أهل التفسير ^(١٤) من السلف : لَا يَخَافُ أَنْ يُظْلَمَ فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ
سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ ، وَلَا يُهْضَمَ فَيُنْقَصَ مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَلَا يُجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا
الظُّلْمُ هُوَ شَيْءٌ مُتَمَنِّعٌ غَيْرُ مُقَدَّرٍ عَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ لَا يَخَافُ مَا هُوَ
مُتَمَنِّعٌ لِدَاثِهِ خَارِجٌ عَنِ الْمُمْكَنَاتِ وَالْمُقَدَّرَاتِ . فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا إِذَا
لَمْ يَكُنْ وَجُودُهُ مُمَكَّنًا حَتَّى يَقُولُوا أَنَّهُ غَيْرُ مُقَدَّرٍ وَلَوْ أَرَادَهُ كَخَلْقِ الْمِثْلِ
لَهُ فَكَيْفَ يَعْقِلُ وَجُودَهُ ، فَضْلًا أَنْ يُتَصَوَّرَ خَوْفُهُ حَتَّى يُنْفَى خَوْفُهُ ؟
ثُمَّ أَى فَائِدَةٍ فِي نَفْيِ خَوْفِ هَذَا ؟ وَقَدْ عَلِمَ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ أَنَّ
الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْعَامِلَ الْمُحْسِنَ لَا يُجْزَى عَلَى إِحْسَانِهِ بِالظُّلْمِ
وَالْهَضْمِ فَعَلِمَ أَنَّ الظُّلْمَ وَالْهَضْمَ الْمُنْفَى يَتَعَلَّقُ بِالْجُزْءِ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ
التَّفْسِيرِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُجْزِيهِ إِلَّا بِعَمَلِهِ . وَلِهَذَا كَانَ الصَّوَابُ الَّذِي دَلَّتْ
عَلَيْهِ النُّصُوصُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَنْ أَذْنَبَ كَمَا قَالَ :

﴿ لَا أَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١٥)

فلو دخلها أحد من غير أتباعه لم تمتلئ منهم . ولهذا ثبت في

(١٣) سورة طه (١١٢/٢٠) .

(١٤) راجع «تفسير الطبري» (٢١٨-٢١٧/١٦) وروى نحوه عن ابن عباس والحسن . وانظر

«تفسير ابن الجوزي» (٣٢٤/٥) .

(١٥) سورة ص (٨٥/٣٨) .

الصحيحين في حديث تحتاج الجنة والنار من حديث أبي هريرة^(١٦) وأنس^(١٧) : أن النار لا تمتلئ مِمَّنْ أُلْقِيَ فِيهَا حتى يَنْزَوَى بِعَظْمِهَا إلى بعض وتقول قَطُّ قَطُّ بعد قولها هل من مزيد . وأما الجنة فيبقى فيها فضل عن يدخلها من أهل الدنيا فَيُنْشِئُ اللهُ لها خلقاً آخر .

ولهذا كان الصواب الذي عليه الأئمة فيمن لم يكلف في الدنيا من أطفال المشركين ونحوهم ماصح به الحديث وهو أن الله أعلم بما كانوا عاملين^(١٨) ؛ فلا نحكم لكل منهم بالجنة ، ولا لكل منهم بالنار ، بل هم

(١٦) حديث أبي هريرة أخرجه البخارى في التفسير (٤٨/٦) ومسلم في صفة الجنة (٢١٨٦/٣) رقم (٣٦) وأحمد في «المسند» (٢٨٦/٢، ٣١٤، ٥٠٧) .

(١٧) حديث أنس أخرجه البخارى في التوحيد (١٦٧/٨) ومسلم في صفة الجنة (٢١٨٨) رقم (٣٨) وأحمد في «المسند» (١٣٤/٣، ١٤١، ٢٣٤) .

(١٨) جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »

رواه البخارى في الجنائز (١٠٤/٢) وفي القدر (٢١١/٧) ومسلم في القدر (٢٠٤٨/٣-٢٠٤٩ رقم ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٧) وأبوداود في السنة (٨٦/٥-٨٨ رقم ٤٧١٤) والنسائي في الجنائز (٥٨/٤) ومالك في «الموطأ» (ص ٢٤١) وأحمد في «المسند» (٢٤٤/٢، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٨، ٣٢٥، ٣٤٦-٣٤٧، ٣٩٣، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٨١، ٥١٨) .

وجاء من حديث ابن عباس أيضا .

أخرجه البخارى (١٠٤/٢) ومسلم (٢٠٤٩/٣) رقم (٢٨) وأبوداود (٨٤/٥) رقم (٤٧١١) والنسائي (٥٩/٤-٦٠) وأحمد (٢١٥/١، ٣٢٨، ٣٤١، ٣٥٨) وأبويعلی في «المسند» (٣٦٢/٤) رقم (٢٤٧٩) .

قال ابن حجر : اختلف العلماء قديما وحديثا في هذه المسئلة —مسئلة مصير أولاد المشركين— على أقوال :

أحدها : أنهم في مشيئة الله . «والحجة فيه حديث الله أعلم بما كانوا عاملين .»

الثاني : أنهم تبع لأبائهم ، فأولاد المسلمين في الجنة ، وأولاد الكفار في النار .

ثالثها : أنهم يكونون في برزخ بين الجنة والنار ، لأنهم لم يعملوا حسنات يدخلون بها الجنة ولا سيئات يدخلون بها النار .

ينقسمون بحسب ما يظهر من العلم منهم إذا كُلفوا يوم القيامة في العرصات كما جاءت بذلك الآثار^(١٩) وكذلك قوله تعالى :

رابعها : انهم خدم أهل الجنة .

خامسها : انهم يصيرون ترابا .

سادسها : انهم في النار .

سابعها : انهم يمتحنون في الآخرة بأن ترفع لهم نار ، فمن دخلها كانت عليه بردا

وسلاما ، ومن أتى عذب .

ثامنها : انهم في الجنة .

قال النووي : وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار اليه المحققون . لقوله تعالى :

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . وإذا كان لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلأن لا يعذب غير العاقل من باب الأولى ، ولأحاديث وردت في هذا المعنى .

تاسعها : الوقف .

عاشرها : الإمساك . وفي الفرق بينها دقة ، انتهى كلام الحافظ بتلخيص واختصار .

راجع «فتح الباري» (٢٤٦/٣-٢٤٧) .

(١٩) فروى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

« يُؤْتَى بِأَرْبَعَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ : بِالْمَوْلُودِ ، وَبِالْمُعْتَوَةِ ، وَبِمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ ، وَالشَّيْخِ الْفَانِي كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ بِحُجَّتِهِ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعُنُقٍ مِنَ النَّارِ : أَتَبَرَزُ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : أَنَّى كُنْتُ أُبْعَثُ إِلَى عِبَادِي رُسُلًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنِّي رَسُولُ نَفْسِي الْيَكْمِ ، أَدْخُلُوا هَذِهِ . فَيَقُولُ مَنْ كَتَبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ يَارَبِّ ائِنْ نَدَخَلَهَا وَمِنْهَا كُنَّا نَفَرًا ؟ قَالَ : وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ السَّعَادَةُ يَمْضِي فَيَتَقَحَّمُ فِيهَا مُسْرِعًا . قَالَ فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنْتُمْ لِرُسُلِي أَشَدَّ تَكْذِيبًا وَمَعْصِيَةً . فَيُدْخِلُ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ وَهَؤُلَاءِ النَّارَ »

رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٢٥/٧ رقم ٤٢٢٤) وأورده الهيثمي في «المجموع» (٢١٦/٧) وقال : رواه أبو يعلى والبخاري بنحوه وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح وتعقبه الأستاذ حسين سليم أسد محقق المسند

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ
بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾^(٢٠)

يدل الكلام على أنه لا يظلم محسنا فينقصه من احسانه ، أو يجعله
لغيره ؛ ولا يظلم مسيئا فيجعل عليه سيئات غيره ، بل لها ما كسبت
وعليها ما اكتسبت وهذا كقوله :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي

قائلا : عبدالوارث مولى أنس ليس من رجال الصحيح ولا من رجال السنن .
وله شاهد من حديث معاذ بن جبل أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٨ رقم ٨٣/٢٠)
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢١٧-٢١٦/٧) وقال : رواه الطبراني في «الأوسط
والكبير» وفيه عمرو بن واقد وهو متروك عند البخاري ورُمى بالكذب . وقال
محمد بن المبارك الصوري : كان يتبع السلطان وكان صدوقا . وبقية رجال
الكبير رجال الصحيح .

وشاهد آخر من حديث أبي سعيد أخرجه البزار وقال الهيثمي : فيه عطية وهو
ضعيف .

وقال الحافظ ابن حجر : وقد صحت مسألة الإمتحان في حق المجنون ومن مات
في الفترة من طرق صحيحة .

وحكى البيهقي في كتاب «الاعتقاد» انه المذهب الصحيح . وتعقب بأن الآخرة
ليست دار تكليف فلا عمل فيها ولا ابتلاء .

وأجيب بأن ذلك بعد أن يقع الاستقرار في الجنة والنار . وأما في عرصات القيامة
فلا مانع من ذلك .

وقد قال تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ﴾ .
وفي الصحيحين : « ان الناس يومرون بالسجود فيصير ظهر المنافق طبقا
فلا يستطيع أن يسجد » .

راجع «فتح الباري» (٢٤٦/٣-٢٤٧) وانظر «الاعتقاد» (٨٨-٩٢) .

(٢٠) سورة فصلت (٤٦/٤١) .

وَقَى ، أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا
مَا سَعَى ﴿٢١﴾

فأخبره أنه ليس على أحد من وزر غيره شيء ، وأنه لا يستحق إلا
ماسعاه وكلا القولين حق على ظاهره .

وان ظن بعض الناس أن تعذيب الميت بيبكاء أهله عليه ينافي
الأول فليس كذلك ، إذ ذلك النائح يُعَذَّبُ بنوحه لا يحمل الميت
وزره ، ولكن الميت يناله ألم من فعل هذا كما يتألم الإنسان من أمور
خارجة عن كسبه وان لم يكن جزاء الكسب .

والعذاب أعم من العقاب كما قال ﷺ :
« السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ » (٢٢) .

وكذلك ظن قوم انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى ينافي
قوله :

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٢٣) .

(٢١) سورة النجم (٥٣/٣٩-٣٦) .

(٢٢) جزء من حديث رواه مالك في الموطأ (ص ٩٨٠) عن سُبَيٍّ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ ، عن
أبي صالح ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :
« السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ، يَنْعَى أَحَدُكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ .. فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ
نَهْمَتَهُ مِنْ وَجْهِهِ فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ » .

وأخرجه البخارى في أبواب العمرة (٣٠٥/٢) وفي الجهاد (١٧/٤) وفي
الأطعمة (٢٠٨/٦) ومسلم في الامارة (١٥٢٦/٢ رقم ١٧٩٩) وابن ماجه في
المناسك (٩٦٢/٢ رقم ٢٨٨٢) والدارمى في الاستئذان (ص ٦٨٢) وأحمد في
«المسند» (٤٤٥، ٢٣٦/٢) .

(٢٣) سورة النجم (٥٣/٣٩) .

فليس الأمر كذلك فان انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالعبادات المالية . ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقوله ظاهر الفساد ، بل ذلك بالنسبة الى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة . وقد بينا في غير موضع^(٢٤) نحواً من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعى غيره

(٢٤) انظر مثلاً ماقاله المؤلف في «الفتاوى» (٣٠٦/٢٤-٣٢٣) وجاء فيه : ان الأئمة اتفقوا على ان الصدقة تصل الى الميت ، وكذلك العبادات البدنية كالعتق . وانما تنازعوا في العبادات البدنية كالصلاة ، والصيام والقراءة . وسئل عن يقرأ القرآن العظيم أو شيئاً منه ، هل الأفضل أن يهدي ثوابه لوالديه ولموتى المسلمين ؟ أو يجعل ثوابه لنفسه خاصة ؟ فأجاب : أفضل العبادات ماوافق هدى رسول الله ﷺ وهدى الصحابة كما صح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته : خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » . وقال ابن مسعود : من كان منكم مستتاً فليستن بمن قدمات ، فان الحى لاتومن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد . فاذا عرف هذا الأصل والأمر الذى كان معروفاً بين المسلمين فى القرون المفضلة أنهم كانوا يعبدون الله بأنواع العبادات المشروعة : فرضها ونفلها من الصلاة والصيام ، والقراءة والذكر وغير ذلك . وكانوا يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، كما أمر الله بذلك لأحيائهم وأمواتهم فى صلاتهم على الجنازة وعند زيارة القبور وغير ذلك .

وروى عن طائفة من السلف : عند كل ختمة دعوة مستجابة . فاذا دعا الرجل عقيب الختم لنفسه ولوالديه ولشايخه وغيرهم من المؤمنين والمؤمنات كان هذا من الجنس المشروع ، وكذلك دعاؤه لهم فى قيام الليل وغير ذلك من مواطن الإجابة .

وقد صح عن النبي ﷺ انه أمر بالصدقة عن الميت ، وأمر ان يصام عنه الصوم . فالصدقة عن الموتى من الأعمال الصالحة ، وكذلك ما جاءت به السنة فى الصوم عنهم .

إِذِ الْآيَةُ أَنَّمَا نَفْتُ اسْتِحْقَاقَ السَّعْيِ وَمِلْكُهُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَالٍ يَسْتَحِقُّهُ
الْإِنْسَانُ وَلَا يَمْلِكُهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْهِ مَالُكَهُ وَمَسْتَحِقُّهُ بِمَا يَنْتَفِعُ بِهِ
مِنْهُ فَهَذَا نَوْعٌ وَهَذَا نَوْعٌ . وَكَذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ مَالٍ يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ
لَا يَحْصُلُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ مَنَفْعَةٌ فَإِنَّ هَذَا كَذِبٌ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ
وَالدُّنْيَوِيَّةِ .

وهذه النصوص النافية للظلم تُثَبِّتُ الْعَدْلَ فِي الْجَزَاءِ وَأَنَّهُ لَا يُبْخَسُ
عَامِلٌ عَمَلُهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِيمَنْ عَاقَبَهُمْ :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ
آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(٢٥)

وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢٦)

بَيَّنَّ أَنَّ عِقَابَ الْمُجْرِمِينَ عَدْلًا لِدُنُوبِهِمْ لِأَنَّا ظَلَمْنَاهُمْ فَعَاقَبْنَاهُمْ بِغَيْرِ
ذَنْبٍ ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِي السَّنَنِ^(٢٧) :

وبهذا وغيره احتج من قال من العلماء أنه يجوز إهداء ثواب العبادات المالية
والبدنية إلى موقى المسلمين كما هو مذهب أحمد وأبي حنيفة وطائفة من أصحاب
مالك والشافعي .

فاذا أهدى لميت ثواب صيام أو صلاة أو قراءة جاز ذلك . وأكثر أصحاب مالك
والشافعي يقولون إنما يشرع ذلك في العبادات المالية .

ومع هذا فلم يكن من عادة السلف إذا صلوا وصاموا وحجوا ، أو قرأوا القرآن
يهدون ثواب ذلك لموتاهم المسلمين ولا خصوصهم ، بل كان عادتهم كما تقدم .
فلا ينبغي للناس أن يعدلوا عن طريق السلف فإنه أفضل وأكمل . والله أعلم .

(قلت) وإذا كان ذلك كذلك فينبغي أن يكون أحسن الأقوال هو أن تقتصر على
ما جاء مصرحا به في السنة وهو أن الصدقة وغيرها من الأعمال المالية ينتفع به
الميت ولا ينتفع بالعبادات البدنية والله أعلم .

(٢٥) سورة هود (١١/١٠١) .

(٢٦) سورة الزخرف (٤٣/٧٦) .

(٢٧) أخرجه أبو داود في «السنة» (٥/٧٥٠ رقم ٤٦٩٩) وابن ماجه في «المقدمة» (١/٢٩٠-٣٠ رقم ٨٧)

وأحمد في «المسند» (٥/١٨٢، ١٨٥، ١٨٩) من حديث أبي بن كعب .

« لَوْ عَذَّبَ اللَّهُ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ »

يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لالكونه بغير ذنب ، وهذا يبين أن من الظلم المنفى عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾^(٣٨)

يُبين أن هذا العقاب لم يكن ظلمًا لاستحقاقهم ذلك ، وأن الله لا يريد الظلم . والأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح المدح بعدم ارادته ؛ وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان المدح قادرًا عليها . فعلم أن الله قادرٌ على ما نَزَّه نفسه عنه من الظلم ، وأنه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي » وان التحريم هو المنع وهذا لا يجوز أن يكون فيم هو ممتنع لذاته ، فلا يصلح أن يقال حَرَمْتُ عَلَى نَفْسِي أو منعتُ نفسي من خلق مثلي أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من الحالات .

وأكثر ما يقال في تأويل ذلك ما يكون معناه : إني أخبرت عن نفسي بأن ما لا يكون مقدورًا لا يكون مني . وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن أنه ليس مراد الرب ، وأنه يجب تنزيه الله ورسوله عن إرادة مثل هذا المعنى الذي لا يليق الخطابُ بمثله إذ هو مع كونه شبه التكرير وإيضاح الواضح ليس فيه مدحٌ ولا ثناء ، ولا ما يستفيده

(٣٨) سورة غافر (٤٠/٣٠-٣١) .

المستع ، فعلم أن الذي حرّمه على نفسه هو أمرٌ مقدورٌ عليه لكنه لا يفعله لأنه حرّمه على نفسه ، وهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن فعله ، مقدّسٌ عنه . يُبيّن ذلك أن ما قاله الناس في حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم : الظلم : وضعُ الشيء في غير موضعه كقولهم مَنْ أشبه أباه فما ظلم ؛ أى فما وضع الشبه غير موضعه . ومعلوم أن الله سبحانه حكّم عدلًا لا يضع الأشياء إلا مواضعها : ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعًا لذاته بل هو ممكنٌ لكنه لا يفعله لأنه لا يريدُه بل يكرهه ويُبغضه إذ قد حرّمه على نفسه .

وكذلك مَنْ قال : الظلم : إضرارٌ غير مستحقٍّ فإن الله لا يعاقبُ أحدًا بغير حق .

وكذلك من قال : هو نقصُ الحق وذكر أن أصله النقصُ كقوله :

﴿ كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾^(٢٩)

وأما من قال : التصرف في ملك الغير فهذا ليس بمُطَرَد ولا منعكس ، فقد يتصرّف الإنسان في ملك غيره بحق ، ولا يكون ظالماً ؛ وقد يتصرّف في ملكه بغير حق فيكون ظالماً . وظلم العبد نفسه كثيرٌ في القرآن .

وكذلك من قال : فعلُ المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك إن سلّم صحة مثل هذا الكلام فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة ، وحرّم على نفسه الظلم ، فهو لا يفعل خلاف ما كتب ، ولا يفعل ما حرّم . وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الأمور التي نبّهنا عليها فيه وإنما نشير إلى النكت .

(٢٩) سورة الكهف (١٨/٣٣) .

وهذا يتبين القول المتوسط وهو : أن الظلم الذى حرّمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ، ويعاقب البرىء على ما لم يفعل من السيئات ، ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ، ونحو ذلك من الأفعال التى يُنزّه الربّ لقسطه وعدله ، وهو قادرٌ عليها . وإنما استحقّ الحمد والثناء لأنه ترك هذا الظلم وهو قادرٌ عليه ، وكما أن الله مُنزّه عن صفات النقص والعيب ، فهو أيضاً مُنزّه عن أفعال النقص والعيب .

وعلى قول الفريق الثانى ماثمّ فعلٌ يجب تنزيه الله عنه أصلاً ، والكتاب والسنة واجماع سلف الأمة وأئمتها يدلّ على خلاف ذلك ، ولكن متكلّموا الإثبات لمّا ناظروا متكلّمة النفى ألزموهم لوازم لم ينفصلوا عنها إلا بمقابلة الباطل بالباطل ، وهذا مماعابه الأئمة ، وذمّوه كما عاب الأوزاعى والزبيدئ والثورى وأحمد بن حنبل وغيرهم مقابلة القدريّة بالغلو فى الإثبات ، وأمروا بالإعتصام بالكتاب والسنة ؛ وكما عابوا أيضاً على من قابل الجهميّة نفاة الصفات بالغلو فى الإثبات حتى دخل فى تمثيل الخالق بالخلق .

وقد بسطنا الكلام فى هذا وهذا ، وذكرنا كلام السلف والأئمة فى هذا فى غير هذا الموضع .

ولو قال قائلٌ : هذا مبنى على مسألة تحسين العقل وتقييحه فمن قال : العقل يُعلم به حسنُ الأفعال وقبحها ، فإنه يُنزّه الربّ عن بعض الأفعال ؛ ومن قال : لا يُعلم ذلك إلا بالسمع ، فإنه يُجوزُ جميع الأفعال عليه لعدم النهى فى حقّه .

قيل له : ليس بناءً هذه على تلك بلازم ، وبتقدير لزومها ففى تلك تفصيلٌ وتحقيقٌ قد بسطناه فى موضعه .

وذلك أنا فرضنا أنا نعلم بالعقل حسن بعض الأفعال وقبحها لكنّ العقل لا يقول : إنّ الخالقَ كالمخلوق حتى يكون ما جعله حسناً لهذا أو قبيحاً له جعله حسناً للآخر وقبيحاً له كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة .

وان فرضنا أن حسن الأفعال وقبحها لا يعلم إلا بالشرع ؛ فالشرع قد دلّ على أن الله قدنزه نفسه عن أفعال وأحكام فلا يجوز أن يفعلها ، تارةً بخبره مثنيًا على نفسه بأنه لا يفعلها ؛ وتارةً بخبره أنه حرّمها على نفسه وهذا يبيّن المسألة الثانية فنقول :

الناس لهم في أفعال الله باعتبار ما يصلح منه ويجوز ، وما لا يجوز منه ثلاثة أقوال : طرفان ووسط .

فالطرف الواحد طرف القدرية ، وهم الذين حجروا عليه أن يفعل إلا ما ظنوا بعقلهم أنه الجائز له ، حتى وضعوا له شريعة التعديل والتجوز فأوجبوا عليه بعقلهم أموراً كثيرة ، وحرّموا عليه بعقلهم أموراً كثيرة ، لا بمعنى أن العقل أمر له وناه ، فإنّ هذا لا يقوله عاقل ، بل بمعنى أنّ تلك الأفعال مما عليم بالعقل وجوبها وتحريمها ، ولكن أدخلوا في ذلك المنكرات ما بنّوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر وتوابع ذلك .

والطرف الثاني طرف الغلاة في الرد عليهم ، وهم الذين قالوا لا ينزّه الربُّ عن فعلٍ من الأفعال ، ولا نعلم وجه امتناع الفعل منه إلا من جهة خبره أنه لا يفعله ، المطابق لعلمه بأنه لا يفعله . وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخبر به من أنّه كتب على نفسه الرحمة ، وحرّم على نفسه الظلم قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿٣٠﴾

وفي الصحيحين^(٣١) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي »

ولم يعلم هؤلاء ان الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه ، إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وأنه لا يفعل هذا ليس فيه تعرضٌ لأنه كتب هذا على نفسه ، وحرّم هذا على نفسه ، كما لو أخبر عن كائنٍ من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيانٌ لكونه محمودًا ممدوحًا على فعل هذا وترك هذا ، ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا . فان الخبر المحض كشفٌ عن الخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو الى الفعل ولا الى الترك بخلاف قوله : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ و « حرّم على نفسه الظلم » .

فان التحريم مانعٌ من الفعل ، وكتابته على نفسه داعيةٌ الى الفعل ، وهذا بين واضح ، إذ ليس المرادُ بذلك مجرد كتابته أنه يفعل

(٣٠) سورة الأنعام (٥٤/٦) .

(٣١) أخرجه البخارى فى بدأ الخلق (٧٣/٤) وفى التوحيد (١٧١/٨) ، ١٧٦ ، ١٨٧-١٨٨ ، (٢١٦) .

ومسلم فى التوبة (٢١٠٧-٢١٠٨ رقم ١٦١٤) من حديث أبي هريرة .

كما أخرجه أيضا الترمذى فى الدعوات (٥٤٩ رقم ٣٥٤٣) .

وابن ماجة فى المقدمة (٦٧/١ رقم ١٨٩) وفى الزهد (١٤٣٥/٢ رقم ٤٢٩٥) .

وأحمد فى «المسند» (٢٤٢/٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٢٣ ، ٤٦٦) وابن أبى عاصم فى «السنة» (٢٧٠/١ رقم ٦٠٨-٦٠٩) وذكره الألبانى فى «الصحيحة» (١٦٢٩) .

وهو كتابة التقدير كما قد ثبت في الصحيح^(٣٢) أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء فانه قال :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾^(٣٣)

ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب ، كما كتب على نفسه الرحمة إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ، ولكن قد حرّم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرّم الظلم ، وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْأَقْتَلَى ﴾^(٣٤)

وبين قوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾^(٣٥) .

وقوله :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾^(٣٦)

وقوله :

« فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَقَالُ لَهُ أَكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ »^(٣٧)

(٣٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٠٤٤/٣٨ رقم (١٦٦) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص . وأخرجه الترمذی فی القدر (٤٥٨/٤ رقم ٢١٥٦) وأحمد في «مسنده» (١٦٩/٢) دون الجملة الأخيرة .

(٣٣) سورة الأنعام (٥٤/٦) .

(٣٤) سورة البقرة (١٧٨/٢) .

(٣٥) سورة القمر (٥٢/٥٤) .

(٣٦) سورة الحديد (٢٢/٥٧) .

(٣٧) روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا رسول الله

فهكذا الفرق أيضا ثابت في حق الله ، ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨)

وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح (٢٩) :

« يامُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ »

ﷺ — وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله رزعه ، وشقاه وسعيه . فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

رواه مسلم في القدر (٢٠٣/٣ رقم ١) — واللفظ له — والبخاري في بدأ الخلق (٧٩-٧٨/٤) وفي الأنبياء (١٠٤-١٠٣/٤) وفي القدر (٢١٠/٧) وفي التوحيد (١٨٨/٨) .

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (رقم ١٨٤) وقد استوفينا تخريجه فيه فراجعه .

(٣٨) سورة الروم (٤٧/٣٠) .

(٣٩) حديث معاذ أخرجه البخاري في الجهاد (٢١٦/٣) وفي اللباس (٦٨/٧) وفي

الاستئذان (١٣٧/٧) وفي التوحيد (١٦٤/٨) .

ومسلم في الإيمان (٥٨٨/١-٥٩٠ رقم ٤٨) .

والترمذي في الإيمان (٢٦٧-٢٦/٥ رقم ٤٣٢٦) وابن ماجه في «الزهد» (١٤٣٥/٢ رقم ٤٢٩٦٦)

وأحمد في «المسند» (٢٢٨/٥٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢) .

وأخرجه أحمد من مسند أنس بن مالك (٢٦٠-٢٦١/٣) .

ومنه قوله في غير حديث :

« كان حقاً على الله أن يفعل به كذا »^(٤٠)

فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ، ونظيره تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله :

﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾^(٤١)

وقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾^(٤٢)

﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤٣)

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾^(٤٤)

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾^(٤٥)

ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمنع بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء : اليمين إما أن تُوجب حقاً أو منعا أو تصديقا أو تكديبا .
وإذا كان معقولا في الإنسان أنه يكون أمرا مأمورا كقوله :

(٤٠) مثل قوله ﷺ : من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة الحديث .

رواه البخارى في الجهاد (٢٠٢/٣) وفي التوحيد (١٧٦/٨) والترمذى في صفة الجنة (٦٧٥/٤ رقم ٢٥٣٠) وأحمد في «المسند» (٣٣٩، ٣٣٥/٢) من حديث أبى هريرة .

(٤١) سورة طه (١٢٩/٢٠) سورة يونس (١٩/١٠) وغير ذلك .

(٤٢) سورة الأعراف (١٨/٧) سورة هود (١١٩/١١) وغير ذلك .

(٤٣) سورة إبراهيم (١٣/١٤) .

(٤٤) سورة آل عمران (١٩٥/٣) .

(٤٥) سورة الأعراف (٦/٧) .

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾^(٤٦)

وقوله :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ ﴾^(٤٧)

مع أنَّ العبدَ له أمرٌ ونهى فوقه ؛ والربُّ الذى ليس فوقه أحدٌ لأنَّ يُتصوَّر أن يكون هو الأمر الكاتب على نفسه الرحمة ، والنهى المحرَّم على نفسه الظلم أولى وأحرى . وكتابته على نفسه ذلك تستلزم ارادته لذلك ، ومحبتَه له ورضاه بذلك ؛ وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بُغضَه لذلك ، وكراهته له . وارادته ومحبتَه للفعل توجب وقوعه منه ، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه .

فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر ففرق بين فعله هو وبين ما هو مفعولٌ مخلوق له ، وليس فى مخلوقه ما هو ظلمٌ منه ، وإن كان بالنسبة الى فاعله الذى هو الإنسان هو ظلمٌ ؟ كما أنَّ أفعال الإنسان هى بالنسبة اليه كذلك ؛ إذ هذه الأحكام هى للفاعل الذى قام به هذا الفعل كما أنَّ الصفات هى صفاتٌ للموصوف الذى قامت به لالخالق الذى خلَقها وجعلها صفاتٍ .

والله تعالى خلَق كل صانعٍ وصنعتَه كما جاء ذلك فى الحديث^(٤٨) ، وهو خالق كل موصوفٍ وصفته . ثم صفاتُ المخلوقات ليست صفاتٍ له كالألوان والطعوم والروائح لعدم قيام ذلك به ، وكذلك حركات

(٤٦) سورة يوسف (١٢/٥٣) .

(٤٧) سورة النازعات (٧٩/٤٠) .

(٤٨) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد (١٧) والحاكم فى «المستدرک» (٣١/١) .

ورواه البيهقى فى «شعب الإيمان» (١/٥٠١-٥٠٢ رقم ١٨٧-بتحقيقنا) وانظر بقية التخریج فيه .

المخلوقات ليست حركاتٍ له ولا أفعالا له بهذا الاعتبار لكونها مفعولاتٍ هو خلقها ؛ وبهذا الفرق تزولُ شبهة كثيرة .

والأمر الذى كتبه على نفسه يستحقُّ عليه الحمد والثناء ، وهو مُقدَّسٌ عن ترك هذا الذى لو تركَ لكان تركه نقصا ، وكذلك الأمر الذى حرَّمه على نفسه يستحقُّ الحمد والثناء على تركه ، وهو مُقدَّسٌ عن فعله الذى لو كان لاوجبَ نقصا . وهذا كُلُّه يبيِّنُ — والله الحمد — عند الذين أُوتوا العلم والإيمان ، وهو أيضا مُستقرٌّ فى قلوب عموم المؤمنين ؛ ولكنَّ القدريةَ شبَّهوا على الناس بشبههم ، فقابلهم من قابلهم بنوعٍ من الباطل كالكلام الذى كان السلفُ والأئمةُ يذمُّونه .

وذلك أنَّ المعتزلة قالوا : قد حصل الاتفاق على أنَّ الله ليس بظالمٍ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ ، والظالمُ مَنْ فَعَلَ الظلمَ ، كما أنَّ العادلَ مَنْ فَعَلَ العدلَ . هذا هو المعروفُ عند الناس مِنْ مَسَمَى هذا الاسم سمعا وعقلا . قالوا : ولو كانَ اللهُ خالقا لأفعال العباد التى هى الظلمُ ، لكان ظالما .

فعارضهم هؤلاء بأن قالوا : ليس الظالمُ مَنْ فَعَلَ الظلمَ ، بل الظالمُ مَنْ قام به الظلمُ .

وقال بعضهم : الظالمُ مَنْ اكتسبَ الظلمَ وكان منهيًا عنه .

وقال بعضهم : الظالمُ مَنْ فَعَلَ مُحَرِّما عليه أو مَانِئى عنه .

ومنهم من قال : مَنْ فَعَلَ الظلمَ لنفسه .

وهؤلاء يَعْنُونَ أن يكونَ الناهى له والمُحرِّم عليه غيره الذى يجبُ عليه طاعته ، ولهذا كان تصوُّر الظلم منه ممتنعا عندهم لذاته كامتناع

أن يكون فوقه أمر له ونهيه . ويمتنع عند الطائفتين أن يعود إلى الرب من أفعاله حكم لنفسه .

وهؤلاء لم يمكنهم أن يَنازعوا أولئك في أن العادل من فعل العدل بل سلموا ذلك لهم وان نازعهم بعض الناس منازعةً عناديةً ، والذي يكشفُ تلبيس المعتزلة أن يقال لهم : الظالم والعادل الذي يعرفه الناس وإن كان فاعلا للظلم والعدل فذلك يأثم به أيضا ، ولا يعرف الناس من يُسمى ظالما ولم يَقم به الفعل الذي به صار ظالما ، بل لا يعرفون ظالما إلا من قام به الفعل الذي فَعَله وبه صار ظالما ، وإن كان فعله متعلقا بغيره ، وله مفعولٌ منفصلٌ عنه لكن لا يعرفون الظالم إلا بأن يكون قد قام به ذلك فكونكم أخذتم في حدّ الظالم انه من فعل الظلم ، وعَنَيْتُمْ بذلك من فعله في غيره فهذا تلبيسٌ ، وافسادٌ للشرع والعقل واللغة كما فعلتم في مسَمَى المتكلم حيث قلتم هو من فعل الكلام ولو في غيره ، وجعلتم من أحدث كلاما منفصلا عنه قائما بغيره متكلما وإن لم يَقم به هو كلامٌ أصلا ، وهذا من أعظم البهتان والقرمطة والسفسطة .

ولهذا ألزهم السلف أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات ، وكذلك أيضا ما خلقه في الحيوانات [كلاما له] ، ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق . وإنما قالت الجلود ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٤٩) ولم تقل نطق الله بذلك ، ولهذا قال من قال من السلف كسليمان بن داود الهاشمي^(٥٠) وغيره مامعناه أنه على هذا يكون الكلام

(٤٩) سورة حم السجدة (٢١/٤١) .

(٥٠) سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن العباس ، أبو أيوب الهاشمي

العباس (م ٢١٩هـ)

الذى خلق فى فرعون حتى قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٥١) كالكلام
الذى خلق فى الشجرة حتى قالت ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾^(٥٢)
فإمّا أن يكون فرعون مُحَقَّقاً أو تكون الشجرة كفرعون وإلى هذا المعنى
ينحو الاتحادية من الجهمية وينشدون :

وَكُلُّ كَلَامٍ فِى الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثَرُهُ وَنِظَامُهُ

وهذا يستوعب أنواع الكفر . ولهذا كان من الأمر البين للخاصة
والعامة أَنَّ مَنْ قَالَ : المتكلم لا يقوم به كلامٌ أصلاً فإنَّ حقيقة قوله
أنه ليس بمتكلم ، إذ ليس المتكلم إلا هذا ، ولهذا كان أوّلوهم
يقولون : ليس بمتكلم ، ثم قالوا : هو متكلم بطريق المجاز ، وذلك لما
استقرَّ فى الفطر أنَّ المتكلم لا بُدَّ أن يقوم به كلامٌ ، وإن كان مع ذلك
فاعلاً له كما يقوم بالإنسان كلامه وهو كاسبٌ له . أمّا أن يجعل مجرد
أحداث الكلام فى غيره كلاماً له فهذا هو الباطل .

وهكذا القول فى الظلم ، فَهَبْ أن الظالم مَنْ فعلَ الظلمَ فليس هو
مَنْ فعله فى غيره ، ولم يَقم به فعلٌ أصلاً ، بل لا بُدَّ أن يكون قد قام به
فعلٌ ، وإن كان متعدياً الى غيره فهذا جواب .

ثم يقال لهم : الظلم فيه نسبةٌ وإضافةٌ ؛ فهو ظلمٌ من الظالم بمعنى

من كبار الأئمة . قال الشافعى : ما رأيت أعقل من هذين الرجلين : أحمد بن
حنبل وسليمان بن داود الهاشمي . وقال أحمد : كان يصلح للخلافة .
راجع «طبقات ابن سعد» (٢٤٣/٧) «الجرح والتعديل» (١١٣/٤) «تاريخ بغداد» (٣١/٩)
«السير» (٦٢٥/١٠) .

(٥١) سورة النازعات (٢٤/٧٩) .

(٥٢) سورة طه (١٤/٢١) .

أنه عُدوانٌ وبَغىٌ منه ؛ وهو ظلمٌ للمظلوم بمعنى أنه بَغىَ واعتداءً عليه . وأما مَنْ لم يكن مُتعدِّى عليه به ، ولا هو منه عُدوانٌ على غيره . فهو في حقِّه ليس بظلمٍ لأمِّه ولاله .

والله سبحانه إذا خلق أفعال العباد فذلك من جنس خلقه لصفاتهم ، فهم الموصوفون بذلك ، فهو سبحانه إذا جعل بعض الأشياء أسودَ ، وبعضها أبيضَ أو طويلًا أو قصيرًا ، أو متحرِّكًا أو ساكنًا ، أو عالمًا أو جاهلاً ، أو قادرًا أو عاجزًا ، أو حيًّا أو ميتًا ، أو مؤمنًا أو كافرًا ، أو سعيدًا أو شقيًّا ، أم ظالمًا أو مظلومًا ، كان ذلك المخلوق هو الموصوف بأنَّه الأبيض ، والأسود ، والطويل ، والقصير ، والحيُّ ، والميت ، ، والظالم ، والمظلوم ، ونحو ذلك . والله سبحانه لا يوصف بشيء من ذلك . وإنما إحداثه للفعل الذى هو ظلمٌ من شخص ، وظلمٌ لآخر بمنزلة أحداثه الأكل والشرب الذى هو أكلٌ من شخص ، وأكلٌ لآخر . وليس هو بذلك آكلًا ولا مأكولًا . ونظائر هذا كثيرة . وإن كان فى خلق أفعال العباد لازمها أو متعديها حكمٌ بالغة ، كاله حكمة بالغة فى خلق صفاتهم وسائر المخلوقات ، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك وقد ظهر بهذين الوجهين تدليسُ القدرية .

وأما تلك الحدودُ التى عورضوا بها فهمى دعاوى ومخالفةً أيضًا للمعلوم من الشرع واللغة والعقل ، أو مُشتملةً على نوع من الاجمال . فإنَّ قول القائل : الظالمُ مَنْ قام به الظلم يقتضى أنه لا بُدَّ أن يقوم به ، لكن يقال له : وإن لم يكن فاعلاً له أمرًا له لا بدَّ أن يكون فاعلاً له مع ذلك ، فإن أراد الأول كان اقتصاره على تفسير الظالم بمن قام به الظلم كإقتصار أولئك على تفسير الظالم فى فعل الظلم . والذى يعرفه الناس عامُّهم وخاصُّهم أن الظالم فاعلٌ للظلم ، وظالمٌ فعلٌ قائمٌ به . وكُلُّ من الفريقين جحدٌ بعض الحق .

وأما قولهم مَنْ فعل محرّماً عليه أو منهيّاً عنه ونحو ذلك فالإطلاق صحيح . لكن يقال قد دلّ الكتاب والسنة على أنّ الله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، وكان حقّاً عليه نصر المؤمنين ، وكان حقّاً عليه أن يجزى المطيعين ، وأنه حرّم الظلم على نفسه ، فهو سبحانه الذى حرّم بنفسه على نفسه الظلم ، كما أنه هو الذى كتب بنفسه على نفسه الرحمة لا يمكن أن يكون غيره محرّماً عليه أو موجباً عليه فضلاً عن أن يعلم ذلك بعقل أو غيره . وإذا كان كذلك فهذا الظلم الذى حرّمه على نفسه هو ظلمٌ بلا ريب وهو أمر ممكن مقدور عليه ، وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره لأنّه عادلٌ ليس بظالم كما يترك عقوبة الأنبياء والمؤمنين وكما يترك أن يحمل البرىء ذنوب المعتدين .

* * * * *

فصل

قوله ﴿ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ﴾

ينبغي أن يعرف أن هذا الحديث شريف القدر عظيم المنزلة ،
ولهذا كان الإمام أحمد يقول : هو أشرف حديث لأهل الشام .

وكان أبودريس الخولاني^(١) إذا حدث به جثا على ركبتيه .
ورأويه أبوذر الذي ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة
منه^(٢) . وهو من الأحاديث الالهية التي رواها الرسول ﷺ عن ربه

(١) أبودريس الخولاني = عائذ الله بن عبدالله (م ٨٠هـ)

قاضي دمشق وعالمها وواعظها . من كبار التابعين . وُلد عام الفتح وأدرك عددا
من الصحابة

قال الذهبي : ليس هو بالمكثر ، لكن له جلالة عجيبة . وكان من فقهاء الشام .
أخرج له الجماعة

ترجمته في «طبقات ابن سعد» (٤٤٨/٧) «المعرفة والتاريخ» (٣١٩/٢)
«الحلية» (١٢٢/٥-١٢٩) «التذكرة» (٥٣/١) «السير» (٢٧٢-٢٧٦) «شذرات» (٨٨/١) .

(٢) روى هذا عن النبي ﷺ من طرق .

فرواه الترمذي (٦٦٩/٥ رقم ٢٨٠١) وابن ماجة (١٥٦ رقم ١٥٦٦) وأحمد (١٦٣/٢ ، ١٧٥ ، ٢٢٣)
وابن سعد في «الطبقات» (٢٢٨/٤) والحاكم في «المستدرک» (٣٤٢/٣) من حديث
عبدالله بن عمرو بن العاص . وفي سنده عثمان بن عمير . قال الحافظ ابن حجر في
التقريب : ضعيف واختلط وكان يدلّس ويغلو في التشيع . من السابعة

وأخبر أنها من كلام الله تعالى وإن لم تكن قرآنا . وقد جمع في هذا الباب زاهر الشحامى^(٣) وعبد الغنى المقدسى^(٤) وأبو عبد الله المقدسى^(٥)

وبقية رجاله ثقات . وذكره الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير» (٥٤١٣) .
وأخرجه أحمد (٤٤٢/٦) وابن سعد (٢٢٨/٤) والحاكم (٣٤٢/٣) من حديث على بن زيد — وهو ابن جدهان — عن بلال بن أبى الدرداء عن أبيه عن النبى ﷺ مثله .
وعلى ضعيف .

وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٣٢٩/٩) وقال : رواه البزار والطبرانى وفيه على ابن زيد ، وقد وثق وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات .

وأخرجه ابن سعد (٢٢٨/٤) من حديث أبى هريرة وسنده أيضا ضعيف .
وأخرجه الترمذى (٦٦٩/٥-٦٧٠ رقم ٣٨٠٢) وابن حبان (٥٦٠ رقم ٢٥٨٨) والحاكم (٣٤٢/٣) وابن سعد (٢٢٨/٤) من حديث أبى ذر . ورجاله ثقات .

وذكره الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير» (٥٤١٤) وقال : صحيح .

(٣) زاهر بن طاهر بن محمد ، أبو القاسم ، الشحامى ، النيسابورى ، المستملى (م ٥٣٣هـ) اعتنى به أبوه فسمّعه فى الخامسة وما بعدها واستجاز له . فروى الكثير ، واستملى على جماعة ، وخرّج وجمع ، وانتقى لنفسه السباعيات وأشياء تدل على اعتنائه بالفن . وكان مكثرا متيقظا .

قال الذهبي : ما هو بالماهر فى فن الحديث . وهو وإيه من قبل دينه .
ترجمته فى «السير» (١٣-٩/٢٠) «الميزان» (٦٤/٢) المستفاد من ذيل «تاريخ بغداد» (١١٨-١٢٠) «لسان الميزان» (٤٧٠/٢) «شذرات الذهب» (١٠٢/٤) .

وذكر له بروكلمن فى «تاريخ الأدب العربى» (٢٤٦/٦-النسخة العربية) «كتاب الأحاديث الالهية» .

(٤) عبد الغنى بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى ، تقى الدين ، أبو محمد ، الجماعلى ، الدمشقى ، الحنبلى (م ٦٠٠هـ)

الإمام الحافظ الكبير ، القدوة المتبع للأثر ، عالم الحفاظ . جمع سيرته الحافظ ضياء الدين المقدسى فى جزءين .

سمع الكثير بدمشق والإسكندرية ، وبيت المقدس ، ومصر ، وبغداد ، وجرّان ، والموصل ، وهمدان .

وكتب الكثير . له مؤلفات نافعة منها «الأحكام الكبرى» و«الصغرى» و«الكمال فى

وغيرهم^(٦) .

وهذا الحديث قد تضمن من قواعد الدين العظيمة في العلوم والأعمال والأصول والفروع ؛ فان تلك الجملة الأولى وهى قوله ﴿ حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ﴾ يتضمن جُلَّ مسائل الصفات والقدر ، إذا أُعْطِيَتْ حَقُّهَا من التفسير وانما ذكرنا فيها ما لا بد من التنبيه عليه من أوائل النكت الجامعة .

وأما هذه الجملة الثانية ، وهى قوله « وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » فانها تجمع الدِّينَ كُلَّهُ فَإِنَّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ رَاجِعٌ إِلَى الظُّلْمِ ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ رَاجِعٌ إِلَى الْعَدْلِ . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

أسماء الرجال » و«المصباح في عيون الأحاديث الصحاح» . و«الأربعين من كلام رب العالمين» وغير ذلك .

ترجمته في «التقييد» (١٣٨/٢) المستفاد من ذيل «تاريخ بغداد» (١٦٩-١٦٨) «السير» (٤٤٣/٢١-٤٧١) «التذكرة» (١٣٧٢/٤-١٣٨١) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٣٤٠/٢) «شذرات» (٣٤٥/٤-٣٤٦) .

(٥) هو الضياء المقدسى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن ، المقدسى ، الجماعلى ، الحنبلى (م ٦٤٣هـ)

صاحب التصانيف والرحلة الواسعة ، والمحقق المجود ، بقية السلف لم يزل ملازما للعلم والرواية الى أن مات . وتصانيفه نافعة مهيبة ، كان عظيم الشأن في الحفظ ومعرفة الرجال . وكان هو المشار اليه في علم صحيح الحديث وسقيه .

قال ابن الحاجب : شيخنا الضياء شيخ وقته ونسيج وحده علما وحفظا وثقة ودينا . من العلماء الربانيين وهو أكبر من أن يدلّ عليه مثلى .

ترجمته في «السير» (١٢٦/٢٣-١٣٠) «التذكرة» (١٤٠٥/٤-١٤٠٦) «الوافى» (٦٥/٤-٦٦) «فوات الوفيات» لابن شاکر (٤٢٦/٣-٤٢٧) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢٣٦/٢-٢٤٠) «شذرات» (٢٢٤/٥) .

(٦) فى الرسالة المنيرية «وغيرها» .

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴿٧﴾

فأخبر أنه أرسل الرُّسُلَ ، وأنزل الكتابَ والميزانَ لأجل قيام الناس بالقسط ، وذكر أنه أنزل الحديدَ الذي به ينصُرُ هذا الحقُّ ؛ فالكتابُ يَهْدِي ، والسيْفُ يَنْصُرُ ؛ وكفى بِربِّكَ هاديًا ونصيرًا . ولهذا كان قِوامُ الناسِ بأهل الكتابِ وأهل الحديدِ ، كما قال مَنْ قال من السلف : صنفان إذا صلحوا صلح الناس : الأمراء والعلماء ^(٨) .

وقالوا في قوله تعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(٩)

أقوالاً ^(١٠) تجمع العلماء والأمراء ولهذا نص الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية إذ كل منهما تجب طاعته فإما يقوم به من طاعة الله وكان نُوَّابُ رسول الله ﷺ في حياته كعلِيٍّ ، ومُعَاذٍ ، وأبي موسى ، وعتاب بن أسيد ، وعثمان بن أبي العاص ، وأمثالهم يجمعون الصنفين . وكذلك خُلَفَاؤُهُ من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلِيٌّ ونُوَّابُهُمْ .

ولهذا كانت السُّنَّةُ أن الذي يُصَلِّي بالناس هو صاحب الكتاب ،

(٧) سورة الحديد (٢٥/٥٧) .

(٨) وروى مرفوعاً عن النبي ﷺ أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩٦/٤) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٨٤/١) وأورده الشيخ الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (رقم ١٦) وقال : موضوع .

(٩) سورة النساء (٥٩/٤) .

(١٠) انظر الأقوال الواردة في ذلك في «تفسير ابن الجوزي» (١١٦/٢) و«الدر المشور» (٥٧٤-٥٧٦) .

والذى يقوم بالجهاد هو صاحب الحديد ، الى أن تَفَرَّقَ الأمرُ بعد ذلك . فاذا تَفَرَّقَ صارَ كُلُّ مَنْ قام بأمر الحرب من جهاد الكفار وعقوبات الفُجَّارِ يجبُ أن يُطاع فيما أَمَرَ به من طاعة الله فى ذلك ؛ وكذلك مَنْ قام بجمع الأموال وقسمها يجبُ أن يُطاع فيما يأمر به من طاعة الله فى ذلك ؛ وكذلك مَنْ قام بالكتاب بتبليغ أخباره وأوامره وبيانها يجب أن يُصدَّقَ ويُطاع فيما أخبر به من الصدق فى ذلك وفيما يأمر به من طاعة الله فى ذلك .

والمقصود هنا أن المقصود بذلك كله هو أن يقوم الناسُ بالقسط ، ولهذا لما كانَ المشركونَ يُحرِّمونَ أشياءَ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان ، ويأمرونَ بأشياءَ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان ، أنزلَ الله فى سورة الأنعام والأعراف وغيرها يذمُّهم على ذلك ، وذكرَ ما أَمَرَ به هو وما حرَّمه هو فقال :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(١١)

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١٢)

وهذه الآية تجمع أنواعَ المحرَّمات كما قد بيَّناه فى غير هذا الموضع ، وتلك الآية تجمع أنواعَ الواجبات كما بيَّناه أيضا ، وقوله :

﴿ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ

(١١) سورة الأعراف (٢٩/٧) .

(١٢) نفس السورة (٣٣/٧) .

وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿ (سورة الأعراف ٢٩/٧) .

أمر مع القسط بالتوحيد الذى هو عبادة الله وحده لا شريك له .
وهذا أصل الدين وضده هو الذنب الذى لا يغفر قال تعالى :
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ﴾ (١٣)

وهو الدين الذى أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به الى جميع
الأمم . قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٤)

وقال تعالى :

﴿ وَسَأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ
دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف ٤٣/٤٥) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ (١٥)

وقال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١٦)

(١٣) سورة النساء (٤/٤٨، ١١٦) .

(١٤) سورة الأنبياء (٢١/٢٥) .

(١٥) سورة النحل (١٦/٣٦) .

(١٦) سورة الشورى (٤٢/١٣) .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾^(١٧)

ولهذا ترجم البخارى فى صحيحه « باب ماجاء فى ان دين الأنبياء واحد^(١٨) » وذكر الحديث الصحيح فى ذلك وهو الاسلام العام الذى اتفق عليه جميع النبيين قال نوح عليه السلام :
﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١٩)

وقال تعالى فى قصة ابراهيم :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢٠)

وقال موسى :

﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾^(٢١)

(١٧) سورة المؤمنون (٥٢-٥١/٢٣) .

(١٨) لم أجد هذا الباب فى نسخة الصحيح المطبوعة . وقد روى البخارى فى الأنبياء (١٥٢/٤) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد» .

ولم يشر الحافظ ابن حجر فى شرحه الى الباب الذى ذكره المؤلف .
والحديث أخرجه مسلم فى الفضائل (١٨٣٧/٢) رقمه (١٤٥٥) .

(١٩) سورة يونس (٧٢/١٠) .

(٢٠) سورة البقرة (١٣١/٢-١٣٢) .

(٢١) سورة يونس (٨٤/١٠) .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾^(٢٢)

وقال في قصة بلقيس :

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿^(٢٣)

وقال :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ
الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾^(٢٤)

وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو
الشرك أعظم الظلم كما أخرجنا في الصحيحين^(٢٥) عن عبد الله بن مسعود
قال لما نزلت هذه الآية :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾^(٢٦)

شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أيُّنا لم يظلم نفسه ؟
فقال : ألم تسمعوا الى قول العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(٢٢) سورة آل عمران (٥٢/٣) .

(٢٣) سورة النمل (٤٤/٢٧) .

(٢٤) سورة المائدة (٤٤/٥) .

(٢٥) أخرجه البخارى في الأنبياء (١١٢/٤) (١٣٧) وفي التفسير (٢٠/٦) وفي استنباطه
المرتدين (٤٨/٨) ومسلم في الإيمان (١١٤/١) رقم (١٩٧) .

وأخرجه أيضا الترمذى في التفسير (٢٦٢/٥) رقم (٣٠٦٧) وأحمد في المسند (٣٧٨/١)، ٤٢٤،

(٤٤٤) والطيالسى في «المسند» (٣٥) وابن جرير في «تفسيره» (٢٥٥/٧-٢٥٦) .

(٢٦) سورة الأنعام (٨٣/٦) .

وفي الصحيحين^(٢٧) عن ابن مسعود قال :

« قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك »

فأنزل الله تصديق ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾^(٢٨) الآية .

وقد جاء عن غير واحد من السلف وروى مرفوعاً :

« الظلم ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً »^(٢٩)

فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئاً فهو الشرك ، فان الله لا يغفر أن يشرك به ؛ وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً فهو ظلم العباد بعضهم بعضاً ، فإن الله لا بد أن ينصف المظلوم من الظالم ؛

(٢٧) أخرجه البخارى فى التفسير (١٤٨/٥، ١٤٦/٦) وفى الأدب (٧٥/٧) وفى الحدود (٢١/٨) وفى السديات (٣٤/٨) وفى التوحيد (٢٠٧/٨، ٢١٠-٢١١) ومسلم فى الإيمان (٩٠/١-٩١ رقم ١٤٢، ١٤١) .

وأخرجه أيضاً الحميدى فى «مسنده» (١٠٣ رقم ٥٧/١) والطيالسى (ص ٣٥) وأحمد (١/٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢، ٤٦٤) وأبوداود فى الطلاق (٢/٧٣٢ رقم ٢٣١٠) والترمذى فى التفسير (٥/٣٣٧ رقم ٣١٨٣) والنسائى فى تحريم الدم (٨٩/٧-٩٠) والطبرانى فى «الكبير» (١٠/٣٥ رقم ٩٨١١، ١٠/٢٨-٢٩ رقم ٩٨١٩-٩٨٢١) .

(٢٨) سورة الفرقان (٦٨/٢٥) .

(٢٩) رواه أحمد فى «المسند» (٢٤٠/٦) من حديث عائشة

وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً فهو ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه .

أى مغفرة هذا الضرب ممكنة بدون رضى الخلق ، فإن شاء عَذَّب هذا الظالم لنفسه ، وإن شاء غفر له .

وقد بسطنا الكلام فى هذه الأبواب الشريفة والأصول الجامعة فى القواعد ، وبيّنا أنواع الظلم ، وبيّنا كيف كان الشرك أعظم أنواع الظلم ومسمى الشرك جليله ودقيقه فقد جاء فى الحديث :
« الشُّرْكُ فى هذه الأمة أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ »^(٣٠)

وروى^(٣١) أن هذه الآية نزلت فى أهل الرياء :

وأورده الهيثمى فى «المجمع» (٣٤٨/١٠) وقال : فيه صدقة بن موسى وقد ضعفه الجمهور . وقال مسلم بن ابراهيم حدثنا صدقة بن موسى وكان صدوقا . وبقيّة رجاله ثقات .

وجاء نحوه من حديث أنس أخرجه الطيالسى فى «مسنده» (٢٨٢) ومن طريقه أبونعيم فى «الحلية» (٣٠٩/٦)

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٣٤٨/١٠) وقال رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيرى ولم أعرفه وبقيّة رجاله ثقات .

وقال الألبانى : حسن لشاهده . راجع «الصحيحة» (١٩٢٧) .

(٣٠) روى من حديث أبى بكر أخرجه أبويعلّى فى «مسنده» (١٠١/٦٠ رقم ٥٨) وأبونعيم فى «الحلية» (١١٢/٧)

ومن حديث عائشة أخرجه الحاكم (٢٩١/٢) وأبونعيم فى «الحلية» (٢٥٣/٩)

ومن حديث أبى موسى أخرجه أحمد (٤٠٣/٤) وأورده الهيثمى فى «المجمع» (٢٢٣/١٠) وقال رواه أحمد والطبرانى فى «الكبير والأوسط» ورجال أحمد رجال الصحيح .

وأخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» (٢٣٨/١٠)

ومن حديث ابن عباس أخرجه أبونعيم فى «الحلية» (٣٧-٣٦/٣)

ووضعه الألبانى فى «صحيح الجامع الصغير» (٣٦٢٤) .

(٣١) انظر «اسباب النزول» للواحدى (٣٠٨) .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا
وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾^(٣٢)

وكان شداد بن أوس يقول : يابقايا العرب ! يابقايا العرب ! انما
أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية^(٣٣) .

قال أبوداود السجستاني صاحب السنن : الشهوة الخفية : حب
الرياسة وذلك أن حب الرياسة هو أصل البغى والظلم كما أن الرياء
هو من جنس الشرك أو مبدأ الشرك ، والشرك أعظم الفساد كما أن
التوحيد أعظم الصلاح ولهذا قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا
يَسْتَضِيعُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ
إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٣٤) الى أن ختم السورة بقوله :
﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾^(٣٥)

وقال :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي
الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾^(٣٦)

(٣٢) سورة الكهف (١٨/١١٠) .

(٣٣) وروى أبونعيم في «الحلية» (٢٦٨/١) عن محمود بن الربيع ان شداد بن أوس قال
— لما حضرته الوفاة — ان أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . وروى
نحوه عن شداد عن النبي ﷺ . أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٥/٤-١٢٦) .
وأبونعيم (٢٦٩/١) .

(٣٤) سورة القصص (٤/٢٨) .

(٣٥) نفس السورة (٨٣/٢٨) .

(٣٦) سورة الإسراء (٤/١٧) .

وقال :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ
جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾^(٣٧)

وقالت الملائكة :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(٣٨)

فاصل الصلاح التوحيد والإيمان ، وأصل الفساد الشرك والكفر كما
قال عن المنافقين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ
مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٣٩)

وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود
الذي يراد منه ، ولهذا يقول الفقهاء : العقد الصحيح مارتب عليه
أثره ، وحصل به مقصوده ؛ والفساد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل
به مقصود ، والصحيح المقابل للفساد في اصطلاحهم هو الصالح ،
وكان يكثر في كلام السلف : «هذا لا يصلح» أو «يصلح» كما كثر في
كلام المتأخرين «يصح ولا يصح» . والله تعالى انما خلق الإنسان
لعبادته وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح :
« أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ

(٣٧) سورة المائدة(٣٢/٥) .

(٣٨) سورة البقرة(٣٠/٢) .

(٣٩) نفس السورة(١٢٠،١١/٢) .

الجسد ، وإذا فسدتُ فسدَ لها سائرُ الجسد . ألا وهى
القلبُ « (٤٠)

وصلاح القلب فى أن يحصل له وبه المقصود الذى خلق له من
معرفة الله ومحبتة وتعظيمه ؛ وفساده فى ضد ذلك فلاصلاح للقلوب
بدون ذلك قط .

والقلبُ له قوتان : العلم والقصد ، كما أن للبدن الحس والحركة
الارادية ، فكما أنه متى خرجت قوى الحس والحركة عن الحال الفطرى
الطبيعى فسدت ، فاذا خرج القلبُ عن الحال الفطرية التى يُولد
عليها كُلُّ مولود — وهى أن يكون مُقَرِّاً لربِّه ، مُريداً له ، فيكون
هو منتهى قصده وارادته ، وذلك هى العبادة ، إذ العبادة كَالِ الحُبِّ
بكمال الدَّلِّ — فمتى لم تكن حركة القلب ووجهه وارادته لله تعالى كان
فاسداً إمَّا بأن يكون مُعرضاً عن الله وعن ذكره ، غافلاً عن ذلك مع
تكذيب ، أو بدون تكذيب ؛ أو بأن يكون له ذكرٌ وشعورٌ ولكن
قصده وارادته غيره لكون الذكر ضعيفاً لم يجتذب القلب الى ارادة الله
ومحبته وعبادته ، والا فمتى قوى علم القلب وذكره ، أوجب قصده
وعلمه قال تعالى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (٤١)

فأمر نبيه بأن يعرض عن من كان مُعرضاً عن ذكر الله ، ولم يكن له

(٤٠) جزء من حديث النعمان بن بشير المشهور الذى أوله «الحلال بين والحرام بين
...» .

أخرجه البخارى فى الإيمان (١٩/١) ومسلم فى المساقاة (١٢١٩/٢-١٢٢٠) رقم (١٠٧٠)
وأخرجه أحمد فى «المسند» (٢٧٤، ٢٧٠/٤) .

(٤١) سورة النجم (٢٩/٥٣) .

مراد إلا ما يكون في الدنيا ، وهذه حال مَنْ فسد قلبه ولم يذكر ربّه ، ولم يُنبِ اليه فيريد وجهه ويخلص له الدين ثم قال ﴿ ذَلِكْ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ ﴾ فأخبر أنهم لم يحصل لهم علمٌ فوق ما يكون في الدنيا فهي أكبر همّهم ، ومبلغ علمهم .

وأما المؤمن فأكبر همه هو الله واليه انتهى علمه وذكره . وهذا الآن باب واسع عظيم قد تكلمنا عليه في مواضعه .

وإذا كان التوحيد أصلَ صلاح الناس ، والإشراك أصلَ فسادهم ، والقسطُ مقرون بالتوحيد إذ التوحيد أصل العدل ، وإرادة العلوّ مقرونة بالفساد إذ هو أصل الظلم فهذا مع هذا وهذا مع هذا كاللوزين في قرْن . فالتوحيد وما يتبعه من الحسنات هو صلاح وعدلٌ ، ولهذا كان الرجل الصالح هو القائم بالواجبات وهو البرُّ وهو العدل ، والذنوب التي فيها تفريط أو عدوان في حقوق الله تعالى وحقوق عباده هي فساد وظلم ولهذا سُمي قُطَاع الطريق مفسدين ، وكانت عقوبتهم حقاً لله تعالى لاجتماع الوصفين ، والذي يريد العلوّ على غيره من أبناء جنسه هو ظالمٌ له باغٍ إذ ليس كونك عالياً عليه باولى من كونه عالياً عليك ، وكلاهما ^(٤٢) من جنس واحد . فالقسط والعدل أن يكونوا إخوة كما وصف الله المؤمنين بذلك .

والتوحيد وإن كان أصل الصلاح فهو أعظم العدل ولهذا قال تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

(٤٢) في المنيرية «كلامها» .

اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٤٣﴾

ولهذا كان تخصيصه بالذكر في مثل قوله :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ^(٤٤)

لا يمنع أن يكون داخلا في القسط ، كما أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان لا يمنع أن يكون داخلا في الإيمان كما في قوله :

﴿ وَمَلَأْنِيكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ ^(٤٥) و ﴿ مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ ﴾ ^(٤٦)

هذا إذا قيل إن اسم الإيمان يتناوله سواء قيل انه في مثل هذا يكون داخلا في الأول فيكون مذكورا مرتين ، أو قيل بل عطفه عليه يقتضى أنه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين وأمثال ذلك مما تنوع دلالاته بالإفراد والإقتران .

لكن المقصود ان كل خير فهو داخلا في القسط والعدل ، وكل شر فهو داخلا في الظلم ، ولهذا كان العدل أمرا واجبا في كل شيء وعلى كل أحد ؛ والظلم محرما في كل شيء ولكل أحد ، فلا يحل ظلم أحد أصلا سواء كان مسلما أو كافرا ، أو كان ظالما . بل الظلم انما يباح ويجب فيه العدل عليه أيضا قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ

(٤٣) سورة آل عمران (٦٤/٣) .

(٤٤) سورة الأعراف (٢٩/٧) .

(٤٥) سورة البقرة (٩٨/٢) .

(٤٦) سورة الأحزاب (٧/٣٣) .

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنٌ ﴿٤٧﴾ أَى يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَاٰنُ أَى بَغْضُ قَوْمٍ
وَهُمُ الْكَافِرُ عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ ﴿ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

وقال تعالى :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى
عَلَيْكُمْ ﴾ (٤٨)

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ
بِهِ ﴾ (٤٩)

وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (٥٠)

وقد دل على هذا قوله فى الحديث :

« يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ
مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا »

فان هذا خطاب لجميع العباد أن لا يظلم أحد أحدا ، وأمر العالم
فى الشريعة مبنى على هذا ، وهو العدل فى الدساء والأموال والابضاع
والانساب والأعراض ، ولهذا جاءت السنة بالقصاص فى ذلك ومقابلة
العادى بمثل فعله لكن المائلة قد يكون علمها أو عملها معتدرا
ومتعسرا ، ولهذا يكون الواجب ما يكون أقرب اليها بحسب الإمكان
ويقال هذا أمثل ، وهذا أشبه ، وهذه الطريقة المثلى لما كان أمثل بما

(٤٧) سورة المائدة (٨/٥) .

(٤٨) سورة البقرة (١٩٤/٢) .

(٤٩) سورة النحل (١٢٦/١٦) .

(٥٠) سورة الشورى (٤٠/٤٢) .

هو العدل والحق في نفس الأمر إذ ذاك معجوز عنه ، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(٥١)

فذكر أنه لم يُكَلَّفْ نفساً إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط لأن الكيل لا بُدَّ له أن يفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات ، وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء يسير لا يمكن الاحتراز منه فقال تعالى ﴿ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

ولهذا كان القصاص مشروعا إذا أمكن استيفاءه من غير جنف كالاقتصاص في الجروح التي تنتهي إلى عظم ، وفي الأعضاء التي تنتهي إلى مفصل ؛ فإذا كان الجنف واقعا في الاستيفاء عدل إلى بدله وهو الدية ، لأنه أشبه بالعدل من اتلاف زيادة في المقتص منه . وهذه حجة من رأى من الفقهاء أنه لا قود إلا بالسيف في العنق . قال : لأن القتل بغير السيف وفي غير العنق لانعلم فيه الماثلة بل قد يكون التحريق والتغريق والتوسيط ونحو ذلك أشد إيلاما ، لكن الذين قالوا : يُفْعَلُ به مثل ما فعل قوْلهم أقرب إلى العدل فإنه مع تحرر التسوية بين الفعلين يكون العبد قد فعل ما يقدر عليه من العدل ، وما حصل من تفاوت الألم خارج عن قدرته ، وأما إذا قطع يديه ورجليه ثم وسطه ، فقول ذلك بضرب عنقه بالسيف ؛ أو رضى رأسه بين حجرين فضرب بالسيف فهنا قد تيقنا عدم المعادلة والماثلة ، وكنا قد فعلنا ما تيقنا انتفاء الماثلة فيه ، وأنه يتعذر معه وجودها بخلاف الأول فإن الماثلة قد تقع إذ التفاوت فيه غير متيقن .

(٥١) سورة الأنعام (١٥٣/٦) .

وكذلك القصاص في الضربة واللمطة ونحو ذلك عدل عنه طائفة من الفقهاء الى التعزير لعدم امكان الماثلة فيه ، والذي عليه الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة وهو منصوص أحمد : ما جاءت به سنة رسول الله ﷺ من ثبوت القصاص به لأن ذلك أقرب الى العدل والماثلة فانا إذا تحررنا أن نفعل به من جنس فعله ، وتقرب القدر من القدر كان هذا أمثل من أن نأتى بجنس من العقوبة تخالف عقوبته جنسا وقدرًا وصفة . وهذا النظر أيضا في ضمان الحيوان والعقار ونحو ذلك بمثله تقريبا أو بالقيمة كما نص أحمد على ذلك في مواضع ضمان الحيوان وغيره ؛ ونص عليه الشافعى فيمن خرب حائط غيره أنه يبنيه كما كان ، وهذا قضى سليمان عليه السلام في حكومة الحرث التى حكم فيها هو وأبوه كما قد بين ذلك في موضعه .

فجميع هذه الأبواب المقصود للشرعية فيها تحرى العدل بحسب الإمكان ، وهو مقصود العلماء لكن أفهمهم من قال بما هو أشبه بالعدل في نفس الأمر وان كان كل منهم قد أوتى علما وحكما لأنه هو الذى أنزل الله به الكتب ، وأرسل به الرسل ؛ وضده الظلم كما قال سبحانه :

« يَا عِبَادِ ! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا »

ولما كان العدل لا بد أن يتقدمه علم إذ من لا يعلم لا يدري ما العدل ، والإنسان ظالم جاهل إلا من تاب الله عليه ، فصار عالما عادلا ؛ صار الناس من القضاة وغيرهم ثلاثة أصناف : العادل العادل^(٥٢) ، والجاهل ، والظالم فهذان من أهل النار كما قال النبي ﷺ :

(٥٢) فى مجموع الفتاوى «العالم الجائر» وهو خطأ .

« الْقَضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضِيَانِ فِي النَّارِ ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ :
رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ ، وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَرَجُلٌ قَضَى
لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ وَقَضَى
بِخِلَافِهِ فَهُوَ فِي النَّارِ »^(٥٣)

فهذان القسمان كما قال :

« مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ »^(٥٤)
« وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَخْطَأَ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ
النَّارِ »^(٥٥)

وكل من حكم بين اثنين فهو قاضٍ سواء كان صاحبَ حرب ، أو
متولى ديوان ، أو منتصباً للاحتساب بالأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر حتى الذي يَحْكُمُ بين الصبيان في الخطوط فإن الصحابة كانوا
يَعُدُّونه من الحُكَّام ، ولما كان الحُكَّام مأمورين بالعدل بالعلم ، وكان

(٥٣) أخرجه أبوداود في الأفضية (٥/٤ رقم ٣٥٧٣) والترمذي (١٣٢٢ رقم ١٣٢٢) وابن ماجه في
الأحكام (٢/٢٧٦ رقم ٢٣١٥) والطبراني في «الكبير» (١١٥٤-١١٥٦ رقم ١١٥٤) والحاكم (٤/٩٠)
والبيهقي في «السنن» (١٠/١١٦) من حديث بريدة بن الحصيْب . وصححه
الألباني . راجع «إرواء الغليل» (٨/٢٣٥-٢٣٦ رقم ٢٦١٤)
وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في «الكبير» وقال الهيثمي في
«المجمع» (٤/١٩٣) رجاله ثقات .

(٥٤) أخرجه أبوداود في العلم (٤/٦٣ رقم ٣٦٥٢) والترمذي في التفسير (٥/٢٠٠ رقم ٢٩٥٢)
وأبويعلى في «المسند» (٣/٩٠ رقم ١٥٢٠) وابن جرير في «تفسيره» (١/٣٤) والطبراني في
«الكبير» (٢ رقم ٢٩٥١) والبعغوى في «شرح السنة» (٢/٢٥٩) من حديث جندب . راجع
«ضعيف الجامع الصغير» (٥٧٤٨) .

(٥٥) أخرجه الترمذي في التفسير (٥٨/١٩٩ رقم ٢٩٥١) وأحمد في «المسند» (١/٢٣٣، ٢٦٩، ٣٢٢،
٣٢٧) والبعغوى في «شرح السنة» (١/٢٥٧-٢٥٨) عن ابن عباس ولفظهم «من قال في
القرآن بغير علم — وفي لفظ برأيه — فليتبوأ مقعده من النار» وليس فيه
فأخطأ .

المفروض انما هو بما يبلغه جهد الرجل قال النبي ﷺ :
« إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ
فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ »^(٥٦)

* * * * *

(٥٦) صحيح من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة .
أخرجه البخارى فى الاعتصام (١٥٧/٨) ومسلم فى الأفضية (١٣٤٣/٢) وأبوداود
فى الأفضية أيضا (٣٥٧٤/٤) والترمذى فى الأحكام (١٣٢٦/٢) والنسائى فى
آداب الفخاسة (٢٢٤/٨) وابن ماجه فى الأحكام (٧٧٦/٢) وأحمد فى
«المسند» (٢٠٤، ١٩٨/٤) .

فصل

فلما ذكر في أول الحديث ما أوجبه من العدل ، وحَرَّمه من الظلم على نفسه وعلى عباده ذكر بعد ذلك احسانه الى عباده مع غناه عنهم وفقرهم اليه ، وأنهم لا يقدرّون على جلب منفعة لأنفسهم ، ولا دفع مضرة إلا أن يكون هو الميسّر لذلك ، وأمر العباد أن يسألوه ذلك ، وأخبر أنهم لا يقدرّون على نفعه ولا ضرّه مع عظم من يوصل اليهم من النعماء ، ويدفع عنهم من البلاء .

وجلبُ المنفعة ودفعُ المضرة اما أن يكون في الدين أو في الدنيا ، فصارت أربعة أقسام : الهداية والمغفرة : وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين ؛ والطعام والكسوة : وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا ؛ وإن شئت قلت : الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية ؛ والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن : الطعام لجلب المنفعة ، واللباس لدفع المضرة .

وفتح الأمر بالهداية فانها وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدى الله اياهم كما قال سبحانه : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۚ ۝ (١) 》

(١) سورة الأعلى (١٧٧-١٨٠) .

وقال موسى :

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^(٢)

وقال تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(٤) .

ولهذا قيل : الهدى أربعة أقسام :

أحدها : الهداية الى مصالح الدنيا ، فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم ، وبين المؤمن والكافر .

والثاني : الهدى بمعنى دعاء الخلق الى ما ينفعهم وأمرهم بذلك ، وهو نصب الأدلة وإرسال الرسل وانزال الكتب فهذا أيضاً يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾^(٥)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٧) .

فهذا مع قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾^(٨) .

(٢) سورة طه (٥٠/٢٠) .

(٣) سورة البلد (١٠/٩٠) .

(٤) سورة الإنسان (٣/٧٦) .

(٥) سورة فصلت (١٧/٤١) .

(٦) سورة الرعد (٧/١٣) .

(٧) سورة الشورى (٥٢/٤٢) .

(٨) سورة القصص (٥٦/٢٨) .

يُبين أن الهدى الذى اثبتته هو البيان والدعاء والأمر والنهى والتعليم وما يتبع ذلك . ليس هو الهدى الذى نفاه وهو القسم الثالث الذى لا يقدر عليه إلا الله .

والقسم الثالث : الهدى الذى هو جعل الهدى فى القلوب وهو الذى يُسميه بعضهم بالالهام والإرشاد وبعضهم يقول هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك ، وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل . فمن قال ذلك من أهل الاثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة ؛ وأما من قال انها استطاعتان : إحداها قبل الفعل وهى الاستطاعة المشروطة فى التكليف كما قال تعالى :

﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾^(٩)

وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين :
« صَلِّ قَائِمًا . فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ »^(١٠)

وهذه الاستطاعة يقترن بها الفعل تارةً والتركُ أخرى وهى الاستطاعة التى لم تعرف القدرية غيرها ، كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الاثبات لم يعرفوا إلا المقارنة . وأما الذى عليه المحققون من

(٩) سورة آل عمران (٩٧/٣) .

(١٠) رواه البخارى فى أبواب تقصير الصلاة (٤١/٢) والترمذى فى الصلاة (٢٠٨/٢ رقم ٣٧٢) وكذا أبوداود (٥٨٥/١ رقم ٩٥٢) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١/٢٨٦ رقم ١٢٢٣) وأحمد (٤٢٦/٤) والبيهقى فى «سننه» (٣٠٤/٢) .

أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعا كما بسطناه في غير هذا الموضع ، فان الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا .

والثانية المقارنة للفعل وهى الموجبة له وهى المنفية عن لم يفعل فى مثل قوله :

﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾^(١١)

وفى قوله : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾^(١٢) .

وهذا الهدى الذى يكثر ذكره فى القرآن فى مثل قوله :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١٣)

وقوله :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾^(١٤)

وفى قوله :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْهُ فَاَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾^(١٥)

وأمثال ذلك ، وهذا هو الذى تنكر القدرية أن يكون الله هو الفاعل

(١١) سورة هود (٢٠/١١) .

(١٢) سورة الكهف (١٠١/١٨) .

(١٣) سورة الناجية (٦/١) .

(١٤) سورة الأنعام (١٢٦/٦) .

(١٥) سورة الكهف (١٧/١٨) .

له ، ويزعمون أن العبد هو الذى يهدى نفسه وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال :

« يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ »

فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك فى أم الكتاب فى قوله :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

وعند القدرية ان الله لا يقدر من الهدى إلا على ما فعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وازاحة العلة . ولا مزية عندهم للمؤمن على الكافر فى هداية الله تعالى ، ولا نعمة له على المؤمن اعظم من نعمته على الكافر فى باب الهدى .

وقد بين الاختصاص فى هذه بعد عموم الدعوة فى قوله :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١٦)

فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذى يُجَوِّزه عليه بعض المثبتة ، وبيان أنه هو الذى يهدى عباده رداً على القدرية فأخبر هناك بعدله الذى يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا باحسانه وقدرته الذى تنكره القدرية وان كان كل منها قصده تعظيماً لا يعرف ما شتمل عليه قوله .

والقسم الرابع الهدى فى الآخرة كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ

(١٦) سورة يونس (٢٥/١٠) .

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ
ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ
الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿١٧﴾

وقال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ
بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴾ ﴿١٨﴾

فقوله يهديهم ربهم بإيمانهم كقوله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ﴿١٩﴾

على أحد القولين في الآية وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما
أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا ، وكما أن قصد الشر في الدنيا
جزاءه الهدى الى طريق النار كما قال تعالى :

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿٢٠﴾

وقال :

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ
سَبِيلًا ﴾ ﴿٢١﴾

(١٧) سورة الحج (٢٢/٢٣-٢٤) .

(١٨) سورة يونس (٩/١٠) .

(١٩) سورة الطور (٢١/٥٢) .

(٢٠) سورة الصافات (٢٢-٢٣/٢٧) .

(٢١) سورة الإسراء (٧٢/١٧) .

وقال :

﴿ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ
وَلَا يَشْقَى ؛ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ؛ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى
وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ؟ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (٢٢)

وقال :

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ
عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ (٢٣) الآية .

فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما
فإن الجزاء أبداً من جنس العمل كما قال ﷺ :
« الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ . أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ
يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ » (٢٤)

وقال :

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ لَهُ اللَّهُ بِهِ

(٢٢) سورة طه (١٢٣/٢٠-١٢٦) .

(٢٣) سورة الإسراء (٩٧/١٧) .

(٢٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٣٨/٨) والحميدي في «مسنده» (٢/٢٦٩ رقم ٥٩١)
وأبوداود في الأدب (٢٣١/٥ رقم ٤٩٤١) والترمذي في البر (٣٢٤-٣٢٣ رقم ١٩٢٤) وأحمد
في «المسند» (١٦٠/٢) والحاكم في «المستدرک» (١٥٩/٤) من حديث عبد الله بن عمرو
وهو حديث صحيح استوفينا تخريجه في «شعب الإيمان» للبيهقي .

طريقًا الى الجنة ؛ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي
الدنيا والآخرة ؛ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ؛ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ
أَخِيهِ « (٢٥)

وقال :

« مَنْ سئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (٢٦)

وقد قال تعالى :

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٢٧)

وقال :

﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾ (٢٨)

وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة .

ولهذا أيضا يُجْزَى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما
يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل : مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا
لَمْ يَعْلَمْ . وقد قال تعالى :

(٢٥) أخرجه مسلم في الذكر (٣/٢٠٧٤ رقم ٣٨) وابن ماجه في المقدمة (١/٨٢ رقم ٢٢٩) والترمذي في القراءات (٥/١٩٥ رقم ٢٩٤٥) وأحمد في «المسند» (٢/٢٥٢) وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (ج ٤ رقم ١٥٧٢) واستوفينا تخريجه فيه فراجع .

(٢٦) روى عن جمع من الصحابة ذكر بعضها البيهقي في «الشعب» وقد حققنا الكلام فيه فانظر تعليقنا على الحديث (١٦١٢) في الجزء الرابع .

(٢٧) سورة النور (٢٢/٢٤) .

(٢٨) سورة النساء (٤/١٤٩) .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيثًا — إِلَى قَوْلِهِ — مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢٩)

وقال :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (٣٠)

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ
كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ﴾ (٣١)

وقال : ﴿ إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٣٢) .

فسروه بالنصر^(٣٣) والنجاة كقوله ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾^(٣٤) وقد قيل
بدر فرق^(٣٥) به بين الحق والباطل ومثله قوله :

(٢٩) نفس السورة (٦٨-٦٦/٤) .

(٣٠) سورة المائدة (١٦-١٥/٥) .

(٣١) سورة الحديد (٢٨/٥٧) .

(٣٢) سورة الأنفال (٢٩/٨) .

(٣٣) تفسيره بالنجاة جاء عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة . راجع «تفسير
الطبري» (٢٢٥/٩) .

وروى عن ابن عباس أيضا أنه فسره بالنصر . رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر
المنثور» (٥٠/٣) وانظر «تفسير ابن الجوزي» (٣٨٤/٣) .

(٣٤) سورة الأنفال (٤١/٨) .

(٣٥) في مجموع الفتاوى المنيرية «نور يفرق به» ولعل الصواب ما أثبتته . وجاء تفسير
«يوم الفرقان» بيوم بدر عن كثير من السلف .

راجع «تفسير الطبري» (٩/١٠) و«الدر المنثور» (٧١/٣) .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٣٦)

وعد المتقين بالمخرج من الضيق وبرزق المنافع ومن هذا الباب قوله :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ^(٣٧)

وقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ^(٣٨)

ومنه قوله :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ ^(٣٩)

وبإزاء ذلك ان الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ^(٤٠) ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ^(٤١)

وقال :

(٣٦) سورة الطلاق (٣-٢/٦٥) .

(٣٧) سورة محمد (١٧/٤٧) .

(٣٨) سورة الكهف (١٣/١٨) .

(٣٩) سورة الفتح (٣-١/٤٨) .

(٤٠) سورة الصف (٥/٦١) .

(٤١) سورة النساء (١٥٥/٤) وفي الفتاوى المنيرية «وقالوا قلوبنا غلف» وهذا خطأ . نعم جاء هذا في آية أخرى هو قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا تَقْضِيهِمْ مِّثْلَ نَفْسِهِمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾^(٤٢)

وقال :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾^(٤٣) الى قوله
﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الى قوله ﴿ يَغْمَهُونَ ﴾ وهذا باب واسع .

ولهذا قال من قال من السلف : ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقدشاع في لسان العامة ان قوله ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾^(٤٤) من الباب الأول حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله . وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل واتقوا الله يعلّمكم^(٤٥) ولا قال فيعلّمكم ، وإنما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضى ان الأول سبب الثاني . وقد يقال : العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زُرْنِي وَازُورِكْ ، وَسَلِّمْ عَلَيْنَا وَسَلِّمْ عَلَيْكَ ، ونحو ذلك مما يقتضى اقتران الفعلين ، والتعارض من الطرفين ؛ كما لو قال لسيده : أعتقني ولكَ عَلَى أَلْفٍ ؛ أو قالت المرأة لزوجها : طَلِّقْنِي وَلِكَ أَلْفٌ ، أو اخلعني ولكَ أَلْفٌ فَإِنَّ ذَلِكَ بمنزلة قولها بألف أو على ألف .

وكذلك أيضا لو قال : أَنْتَ حَرٌّ وَعَلَيْكَ أَلْفٌ ، أو أَنْتَ طَالِقٌ

﴿ قالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ (البقرة ٨٨/٢) .

(٤٢) سورة المائدة (١٣/٥) .

(٤٣) سورة الأنعام (١١٠/٦-١١١) .

(٤٤) سورة البقرة (٢٨٢/٢) .

(٤٥) في الفتاوى والمنيرية «ويعلمكم» بواو العطف وهو خطأ .

وعليك ألف فانه كقوله : على ألف أو بألف عند جمهور الفقهاء ،
والفرق بينهما قولٌ شاذٌّ . ويقول أحد المتعاضدين للآخر : أعطيك هذا
وأخذ هذا ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر : نعم وان لم يكن
أحدهما هو السبب للآخر دون العكس .

فقوله «واتقوا الله ويعلمكم الله» قد يكون من هذا الباب فكلُّ من
تعليم الرب ، وتقوى العبد يقاربُ الآخر ويلازمه ويقتضيه فتى علَّمه
الله العلمَ النافعَ اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتى اتَّقاه زاده من
العلم وهَلَمَّ جَرًّا .

* * * * *

فصل

وأما قوله :

« يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي
أُطْعِمُكُمْ ، وَكُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكَسُونِي
أَكْسِيكُمْ » .

فيقتضى أصلين عظيمين : أحدهما وجوب التوكل على الله في الرزق
المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس ، وأنه لا يقدر غير
الله على الاطعام والكسوة قدرة مطلقة . وانما القدرة التي تحصل
لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك ولهذا قال :

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(١)

وقال :

﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا
وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾^(٢)

(١) سورة البقرة (٢/٢٣٣) .

(٢) سورة النساء (٤/٥) .

فالمأمور به هو المقدور للعباد وكذلك قوله :
﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ، أَوْ
مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾^(٣)

وقوله :

﴿ وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾^(٤)

وقوله :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾^(٥)

وقال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾^(٦)

فدَمَّ مَنْ يترك المأمور به اكتفاءً بما جرى به القدر .

ومن هنا يُعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا يُنافي وجوب
التوكل على الله في وجود السبب ، بل الحاجة والفقْر إلى الله ثابتة مع
فعل السبب إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول
المطلوب ، ولهذا لا يجب أن تقتزن الحوادث بما قد يجعل سببا إلا
بمشيئة الله تعالى ، فانه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فمن ظنَّ
الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل
وأخلَّ بواجب التوحيد ؛ ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على

(٣) سورة البلد (١٤/٩٠-١٦) .

(٤) سورة الحج (٣٦/٢٢) .

(٥) نفس السورة (٢٨/٢٢) .

(٦) سورة يس (٤٧/٣٦) .

الأسباب ، فمن رجا نصراً أو رزقاً من غير الله خذله الله كما قال على رضى الله عنه :

(لَا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ)

وقد قال تعالى :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٧)

وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ يُمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾
(سورة يونس ١٠/١٠٧)

وقال :

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(٨)

وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر به من الأسباب فهو أيضاً جاهلٌ ظالمٌ عاصٍ لله بترك ما أمره فان فعل المأمور به عبادةً لله وقد قال تعالى :

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾^(٩)

(٧) سورة فاطر (٢/٣٥) .

(٨) سورة الزمر (٣٨/٣٩) .

(٩) سورة هود (١٢٣/١١) .

وقال :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١٠)

وقال :

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
مَتَابِ﴾^(١١)

وقال شعيب عليه السلام :

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١٢)

وقال :

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١٣)

وقال :

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ
قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا
حَتَّى تَوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ
لَا تُسْغِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١٤)

(١٠) سورة الفاتحة (٥/١) .

(١١) سورة الرعد (٣٠/١٣) .

(١٢) سورة هود (٨٨/١١) .

(١٣) سورة الشورى (١٠/٤٢) .

(١٤) سورة الممتحنة (٤/٦٠) .

فليس مَنْ فعل شيئاً أمر به وتَرَكَ ماأمر به من التوكل بأعظم ذنباً مِمَّنْ فعلَ توكلًا ماأمر به ، وتَرَكَ فعلَ ماأمر به من السبب .
إذ كلاهما مُخلٌ ببعض ماوجب عليه ، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقديكون هذا ألومٌ وقديكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب .

وقدروى أبوداود في سننه^(١٥) أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال
المقضى عليه : حَسْبِيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ فقال النبي ﷺ :
« إِنَّ اللهَ يُلَوِّمُ عَلَى الْعِجْزِ . وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ ، فَإِنْ
غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ »

وفي صحيح مسلم^(١٦) عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ
أنه قال :

« الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ،
وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ . احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ
وَلَا تَعْجِزْ . فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ
لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ! وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ
الَّذِينَ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »

ففى قوله ﷺ .

« احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجِزْ »

(١٥) فى الأقضية (٤/٤٤٤ رقم ٣٦٢٧) عن عوف بن مالك وسنده ضعيف وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» (رقم ١١٦٢) فانظر تحريجه فيه . وله شاهد من حديث أبي أمامة أخرجه أبو الشيخ فى «الأمثال» (رقم ٢١٠-بتحقيقنا) .

(١٦) فى القدر (٣/٢٠٥٣ رقم ٣٤) وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» (١/٥١٢-٥١٣ رقم ١٩١) وقد استوفينا تحريجه فيه .

أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع ، وأمر مع ذلك بالتوكل ، وهو الاستعانة بالله . فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين ؛ ونهى عن العجز الذى هو ضد الكيس كما قال فى الحديث الآخر :

« ان الله يلوّم على العجز ، ولكن عليك بالكيس »

وكما فى الحديث الشامى ^(١٧) :

« الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ »

فالعاجز فى الحديث مقابل الكيس ومن قال العاجز الذى هو مقابل البرّ فقد حرّف الحديث ولم يفهم معناه .

ومنه الحديث ^(١٨) :

« كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ حَتَّى الْعِجْزِ وَالْكَيْسِ »

ومن ذلك ما روى البخارى فى صحيحه ^(١٩) عن ابن عباس قال :

« كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ ، وَلَا يَتَزَوَّدُونَ ، يَقُولُونَ : نَحْنُ

(١٧) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة (٦٣٨/٤ رقم ٢٤٥٩) وابن ماجّة فى

«الزهد» (١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٠) وأحمد فى «المسند» (١٢٤/٤) والحاكم فى «المستدرک» (٥٧/١)

وصححه ورّدّه الذهبى بقوله : لا والله . أبوبكر — هو ابن أبى مریم الغسانى —

واه . ثم اعاده الحاكم (٢٥١/٤) وأقره الذهبى على تصحيحه : وذكره الألبانى فى

«ضعيف الجامع الصغير» (٤٣١٠) وهو فى «شعب الإيمان» للبيهقى باب الزهد .

(١٨) رواه مالك فى «الموطأ» (٨٩٩) ومسلم فى القدر (٢٠٤٥/٣ رقم ١٨) والبخارى فى خلق

أفعال العباد (ص ١٧) وأحمد فى «المسند» (١١٠/٢) من حديث عبد الله بن عمر .

(١٩) فى الحج (١٤١/٢)

وأخرجه البيهقى فى «شعب الإيمان» (١١٥٣) وانظر تحريجه فيه .

الْمُتَوَكِّلُونَ . فَاذَا قَدِمُوا سَأَلُوا النَّاسَ »

فقال الله تعالى :

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ (٢٠)

فمن فعل مأمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله ، وأحسن منه الى من يكون محتاجا ، كان مطيعا لله في هذين الأمرين بخلاف من ترك ذلك ملتفتا الى أزواد الحجيح ، كلاً على الناس ، وان كان مع هذا قلبه غير ملتفت الى معين فهو ملتفت الى الجملة . لكن ان كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ، ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به .

وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف : طائفة تُضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصاً أو قدحاً في التوحيد والتوكل ، وان تركه من كمال التوكل والتوحيد وهم في ذلك ملبوس عليهم ، وقد يقرن بالغلط اتباع الهوى في اخلاص النفس الى البطالة ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك ، فإمّا أن يُعَلِّقُوا قُلُوبَهُمْ بِالْخَلْقِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، وإمّا أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك كمن يصرف همته في توكله الى شفاء مرضه بلا دواء ، أو نيل رزقه بلا سعي فقد يحصل ذلك ، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف ، والسعي اليسير وصرف تلك المهمة والتوجه في عمل صالح انفع له بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه .

(٢٠) سورة البقرة (١٩٧/٢) .

وفوق هؤلاء مَنْ يجعل التوكلَ والدعاءَ أيضا تقصا وانقطاعا عن الخاصة ظنا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة وقد قال في هذا الحديث :

« كلّم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم وقال فاستكسوني أكسكم »

وفي الطبراني^(٢١) وغيره عن النبي ﷺ قال :
« لَيْسَ لْ أَحَدِكُمْ رَبٌّ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى شِيعَ نَعْلُهُ إِذَا انْقَطَعَ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيسِّرْهُ لَمْ يَتيسَّر »

وهذا قد يلزمه أن يجعل أيضا استهداء الله وعمله بطاعته من ذلك . وقولهم يُوجب دفع المأمور به مطلقا بل دفع المخلوق والمأمور وانما غلطوا من حيث ظنوا [ان] سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به ، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناء على ان القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة ، ولم يعلم ان القدر سبق بالأمر على ما هي عليه فَنَ قَدَرَهُ اللهُ من أهل السعادة كان مما قدره الله بتيسيره لعمل أهل السعادة ، وَمَن قَدَرَهُ من أهل الشقاوة كان مما قدره أَنه يُيسِّرهُ لعمل أهل الشقاء كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب^(٢٢) وعمران بن حصين وسراقة

(٢١) رواه الطبراني في كتاب الدعاء (٤/ب) وأخرجه الترمذي في الدعوات (٤/٢٩٢-تحفة) والبيهقي في «شعب الإيمان» (رقم ١٠٧٩) وانظر الكلام عليه هناك .

(٢٢) حديث علي بن أبي طالب أخرجه البخاري في التفسير (٦/٨٥) ومسلم في القدر (٣/٤٠٢٠) وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤٩٤ رقم ١٨٢) واستوفينا تخريجه فيه .

(٢٣) حديث عمران بن حصين أخرجه مسلم في القدر من «صحيحه» (٣/٢٠٤١) وأحمد في «مسنده» (٤/٤٣٨)

ابن^(٢٤) جعشم وغيرهم .

ومنه حديث الترمذى^(٢٥) حدثنا ابن (أبي) عمر ، حدثنا سفيان ، عن الزهري ، عن أبي خزيمة عن أبيه قال سألت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله أرأيت أدويةً تَدَاوِي بها وَرَقَى نَسْتَرِقي بها وَتَقَاةٌ نَتَقِيها هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » .

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل . وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها كالحُبِّ والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلالٌ مُبين ، بل جميع هذه الأمور فروضٌ على الأعيان باتفاق أهل الإيمان ، ومن تركها بالكلية فهو إمّا كافرٌ ، وإمّا منافق ، لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مقتصدٌ ، ومنهم سابق بالخيرات . ونصوص الكتاب والسنة طافحةٌ بذلك . وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقلِّ لَوْماً من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال ، بل استحقاقُ الذم والعقاب يتوجّه إلى مَنْ تركَ المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة وإن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها ، والأمور الظاهرة كآلها وفروعها التي لا تتمُّ إلا بها .

* * * * *

= وهو عند البيهقي في «شعب الإيمان» (١/٤٩٥-٤٩٦ رقم ١٨٣) وانظر فيه تحريجه .
(٢٤) حديث سراقه أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١/٢٥ رقم ٩١) وقال في الزوائد : في أسناده مقال .

(٢٥) أخرجه الترمذى في الطب (٤/٣٩٩ رقم ٢٠٦٥) وابن ماجه (٢/١١٣٧ رقم ٣٤٣٧) وأحمد في «المسند» (٣/٤٢١)

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (رقم ١١٥٧) فراجع كلامنا عليه .

فصل

وأما قوله :
 « يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَعْفِرُ
 الذُّنُوبَ جَمِيعًا »

وفي رواية :
 « وَأَنَا أَعْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا أُبَالِي فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ »

فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان :

أحدهما : المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى :
 ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الى قوله ﴿ ثُمَّ لَا تَنْصِرُونَ ﴾^(١)

فهذا السياق مع سبب^(٢) نزول الآية يبين أن المعنى : لا يئأس

(١) سورة الزمر (٣٩/٥٤-٥٤) .

(٢) ذكر في سبب نزول هذه الآية أقوال أصحابها مارواه البخارى في التفسير من «صحيحه» عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا : ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تجربنا ان لما علمنا كفارة فنزل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله الها آخر ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم ﴾ . وانظر «أسباب النزول» للواحدي (٣٩٠) .

وقيل نزلت في وحشى قاتل حمزة .

وقيل نزلت في قوم آمنوا ثم افتنسوا . راجع «اسباب النزول» (٣٨٩-٣٩١) و«الدر المنثور» (٢٣٥/٧-٢٣٧) .

مُذْنِبٌ مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ مَا كَانَتْ فَانِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ لِعَبْدِهِ التَّائِبِ ، وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ الشَّرْكَ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ فَانِ اللَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ ذَلِكَ لِمَنْ تَابَ مِنْهُ قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ إِلَى
قَوْلِهِ ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ ﴾ ^(٣)

وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى :

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي
الدِّينِ ﴾ ^(٤)

وَقَالَ :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ
﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ ^(٥)

وَهَذَا الْقَوْلُ الْجَامِعُ بِالْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ ذَنْبٍ لِلتَّائِبِ مِنْهُ — كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ — هُوَ الصَّوَابُ عِنْدَ جَاهِلِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ
النَّاسِ مَنْ يَسْتَنِي بَعْضَ الذُّنُوبِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ أَنْ تَوْبَةُ الدَّاعِيَةِ إِلَى
الْبِدْعِ لَا تَقْبَلُ بَاطِنًا لِلْحَدِيثِ الْإِسْرَائِيلِيِّ ^(٦) الَّذِي فِيهِ فَكَيْفَ مِنْ

(٣) سُورَةُ بَرَاءَةِ (٥/٩) .

(٤) نَفْسُ السُّورَةِ (١١/٩) .

(٥) سُورَةُ الْمَائِدَةِ (٥/٧٣-٧٤) .

(٦) لَمْ أَقِفْ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ .

وَقَدْ فَصَّلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ الْقَوْلُ فِي مَسْئَلَةِ تَوْبَةِ الْمُبْتَدِعِ فِي فَتَاوَاهُ فَقَالَ فِي «تَفْسِيرِهِ» =

لقلوه تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعا » :

هذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا ، وفيها ردٌّ على طوائف ، ردٌّ على من يقول : إن الداعي الى البدعة لا تقبل توبته ويحتجون بحديث اسرائيلي فيه : انه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟

وهذا يقوله طائفة من ينتسب الى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك ، كأبي على الأهوازي وأمثاله من لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، وما يحتج به ما لا يحتج به ، بل يروون كل ما في الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع مذاهب سائر أئمة المسلمين انه تقبل توبته كالتقبل توبة الداعي الى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم وقد تاب قادة الأحزاب مثل أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس اسلاما وغفر الله لهم . قال تعالى :

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (سورة الأنفال ٢٨/٨) .
وعمر بن العاص كان من أعظم الدعاة الى الكفر والإيذاء للمسلمين وقد قال له النبي ﷺ لما أسلم : « يا عمر ! أما علمت ان الاسلام يجب ما كان قبله ؟ ! »
وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴾ (سورة الاسراء ١٧/٥٧) .

قال : كان ناس من الانس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم أولئك الجن ، والانس يعبدونهم .

ففى هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الاسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلّوهم أولا .

وأيا فالداعي الى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل هذا واتبعه . وهذا عليه وزره ووزر من اتبعه الى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فاذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم . وأماهم فسواء تاب أو لم يتب حالهم واحد . ولكن توبته قبل هذا تحتاج الى ضد ما كان عليه من الدعاء الى الهدى ، ككتاب كثير من الكفار =

أضلت ، وهذا غلط ، فان الله قَدَيَّنَ في كتابه وَسُنَّةَ رسوله أنه يتوبُ على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾^(٧)

قال الحسن البصري : انظروا الى هذا الكرم عذبوا أولياءه وفتنوه ثم هو يدعوهم الى التوبة .

وكذلك توبة القاتل ونحوه . وحديث أبي سعيد المتفق عليه^(٨) في الذى قتل تسعة وتسعين نفساً يدل على قبول توبته . وليس في الكتاب والسنة ما ينافي ذلك ، ولانصوص الوعيد فيه وفي غيره من الكبائر بمنافية لنصوص قبول التوبة . فليست آية الفرقان بمنسوخة بآية النساء إذ لامنافاة بينهما فانه قد علم يقينا أن كل ذنب فيه وعيد فإنَّ لحوق الوعيد مشروطٌ بعدم التوبة إذ نصوص التوبة مُبَيَّنَّةٌ لتلك النصوص كالوعيد في الشرك وأكل الربا وأكل مال اليتيم والسحر وغير ذلك من الذنوب .

ومن قال من العلماء : توبته غير مقبولة فحقيقةً قوله التى تلاءم أصول الشريعة أن يُراد بذلك أن التوبة المجردة تُسْقَطُ حقَّ الله من

وأهل البدع وصاروا دعاة الى الاسلام والسنة . وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

راجع «مجموع فتاوى شيخ الاسلام» (٢٥-٢٣/١٦) .

(٧) سورة البروج (١٠/٨٥) .

(٨) أخرجه البخارى في أحاديث الأنبياء (١٤٩/٤) ومسلم في التوبة (٢١١٨/٣) رقم (٤٧٠٤٦٦) .

وابن ماجة في الديات (٢/٨٧٥ رقم ٢٦٢٢) وأحمد في المسند (٧٢/٣) وأبويعلی في

«مسنده» (٣٠٧-٣٠٥/٢ رقم ١٠٣٣) .

العقاب ، وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة وهذا حق ؛ ولا فرق في ذلك بين القاتل وسائر الظالمين . فَمَنْ تَابَ مِنْ ظَلَمٍ لم يسقط بتوبته حق المظلوم ، لكن من تمام توبته أَنْ يُعَوِّضَهُ بِمَثَلِ مَظْلَمَتِهِ ، وإن لم يُعَوِّضْهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْعَوْضِ فِي الْآخِرَةِ فَيَنْبَغِي لِلظَّالِمِ التَّائِبِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ حَتَّى إِذَا اسْتَوْفَى الْمَظْلُومُونَ حَقَّوْقَهُمْ لَمْ يَبْقَ مَفْلَسًا ، وَمَعَ هَذَا فَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَعْوِضَ الْمَظْلُومَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَرَادًّا لِفَضْلِهِ كَمَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَ الشَّرِكِ لِمَنْ يَشَاءُ ؛ وَلِهَذَا فِي حَدِيثِ الْقَصَاصِ الَّذِي رَكِبَ فِيهِ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَنَيْسٍ شَهْرًا حَتَّى شَافَهُ بِهِ — وَقَدَّرُوهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٩) وَغَيْرُهُ وَاسْتَشْهَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ^(١٠) وَهُوَ مِنْ جِنْسِ حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ صَحَاحِهِ أَوْ حَسَانِهِ — قَالَ فِيهِ :

« إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْخَلَائِقَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ ، وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرَ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ مَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدِّيَّانُ ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ [عِنْدَهُ حَقٌّ] حَتَّى أَقْصِيَهُ مِنْهُ »

فبين في الحديث العدل والقصاص بين أهل الجنة وأهل النار . وفي صحيح مسلم^(١١) من حديث أبي سعيد :

(٩) راجع «المسند» (٤٩٥/٣) وقال ابن حجر ورواه أبو يعلى والطبراني .

(١٠) في «التوحيد» (١٩٤/٨) ووصله في «الأدب المفرد» (٢٥٢ رقم ٩٧٠) .

(١١) كذا في «الفتاوى» و«المنيرية» وهو خطأ . فالحديث من ماتفرد به البخارى عن =

« إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا هُذَّبُوا وَتُقَوُّ أُذُنُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ »

وقد قال سبحانه لما قال :

﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ — والاعتياب من ظلم الأعراس قال — ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢)

فقد نَبَّههم على التوبة من الاعتياب وهو من الظلم وفي الحديث الصحيح (١٣) :

« مَنْ كَانَ عِنْدَهُ لِأَخِيهِ مَظْلَمَةٌ فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ فَلْيَأْتِهِ فَلْيَسْتَحِلِّ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ فِيهِ دَرَاهِمٌ وَلَا دِينَارٌ إِلَّا الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُ حَسَنَاتٌ وَإِلَّا أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ يُلْقَى فِي النَّارِ » أو كما قال .

وهذا فيما علمه المظلوم من العوض فأما إذا اغتابه أو قذفه ولم يعلم بذلك ، فقد قيل من شرط توبته اعلامه .

وقيل : لا يشترط ذلك وهذا قول الأكثرين ، وهما روايتان عن أحمد لكن قوله مثل هذا أن يفعل مع المظلوم حسنات كالدعاء له والإستغفار وعمل صالح يُهدى اليه يقوم مقام اغتيابه وقذفه .

مسلم . فأخرجه في المظالم (٩٧/٣) وفي الرقاق (١٩٧/٧) وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٨٠/٢-١٨١ رقم ٣٢٩) فانظر تخريجه فيه .

(١٢) سورة الحجرات (١٢/٤٩) .

(١٣) رواه البخارى في المظالم (٩٩/٣) وفي الرقاق (١٩٧/٧) من حديث أبي هريرة وأخرجه أحمد في «المسند» (٥٠٦، ٤٣٥/٢) .

قال الحسن البصرى : كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبتة .

وأما الذنوب التى يطلق الفقهاء فيها نفى قبول التوبة مثل قول أكثرهم : لا تقبل توبة الزنديق وهو المنافق^(١٤) وقولهم : إذا تاب المحارب قبل القدرة عليه تسقط عنه حدود الله ، وكذلك قول كثير منهم أو أكثرهم فى سائر الجرائم كما هو أحد قولى الشافعى وأصح الروايتين عن أحمد ، وقولهم : هؤلاء إذا تابوا بعد الرفع الى الامام لم تقبل توبتهم فهذا انما يريدون به رفع العقوبة المشروعة عنهم أى لا تقبل توبتهم بحيث يُخْلَى بلا عقوبة ، بل يعاقب إما لأن توبته غير معلومة الصحة بل يظن به الكذب فيها ، وإما لأن رفع العقوبة بذلك يُفضى الى انتهاك المحارم وسد باب العقوبة على الجرائم ؛ ولا يريدون بذلك أن مَنْ تاب من هؤلاء توبةً صحيحةً فإن الله لا يقبل توبته فى الباطن إذ ليس هذا قول أحد من أئمة الفقهاء بل هذه التوبة لا تُمنع إلا إذا عاينَ أمر الآخرة كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلِلَّذِينَ

(١٤) كذا فسر الزنديق بالمنافق . والزنديق فى الأصل هو من يؤمن بالنور والظلمة . والزنادقة من اتباع دِيسان ثم ماني ثم مزدك . أظهر جماعة منهم الإسلام خشية القتل . ومن ثم أطلق الإسم على من أسر الكفر . وأظهر الإسلام حتى قال مالك : الزندقة ما كان عليه المنافقون . وكذا أطلق جماعة من الفقهاء الشافعية وغيرهم ان الزنديق هو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر . راجع «فتح البارى» (٢٧١/١٢) .

يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴿١٥﴾ الآية .

قال أبو العالية^(١٦) سألت أصحاب محمد ﷺ عن ذلك فقالوا لى :
كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من
قريب .

وأما من تاب عند معاينة الموت فهذا كفرعون الذى قال الله
فيه :

﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١٧)

قال الله :

﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١٨)

وهذا استفهام انكار بين به ان هذه التوبة ليست هى التوبة
المقبولة المأمور بها ، فان استفهام الإنكار إمّا بمعنى النفي إذا قابل
الإخبار ، وإما بمعنى الذم والنهي إذا قابل الإنشاء وهذا من هذا
ومثله قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ
الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا
قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

(١٥) سورة النساء (٤/١٧-١٨) .

(١٦) وروى نحوه عن غيره أيضا راجع «تفسير الطبري» (٤/٢٩٨) و«الدر
المنثور» (٢/٤٥٩) .

(١٧) سورة يونس (١٠/٩٠) وفي الفتاوى والمنيرية «فلما أدركه الغرق ...» .

(١٨) نفس السورة (١٠/٩١) .

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿١٩﴾ الآية .

يَبَيِّنُ أَنَّ التَّوْبَةَ بَعْدَ رُؤْيَا الْبَأْسِ لَا تَنْفَعُ ، وَأَنَّ هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ كُفْرَعُونَ وَغَيْرِهِ .

وَفِي الْحَدِيثِ (٢٠) :

« إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ »

وَرَوَى « مَا لَمْ يُعَايِنِ » . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢١) أَنَّهُ ﷺ :

« عَرَضَ عَلَى عَمِّهِ التَّوْحِيدَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ »

وَقَدْ عَادَ يَهُودِيًّا كَانَ يَخْدُمُهُ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنَ النَّارِ » . ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

« آوُوا أَخَاكُمْ » (٢٢)

وَمُضَيِّبِينَ أَنَّ الْمَغْفِرَةَ الْعَامَّةَ فِي الزَّمْرِ (٢٣) هِيَ لِلتَّائِبِينَ أَنَّهُ قَالَ فِي

سُورَةِ النِّسَاءِ :

(١٩) سُورَةُ الْمُؤْمِنِ (٤٠/٨٣-٨٥) .

(٢٠) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الدَّعَوَاتِ (٥٤٧/٥ رَقْمُ ٣٥٣٧) وَابْنُ مَاجَةَ فِي

« الزَّهْدِ » (٢/١٤٢٠ رَقْمُ ٤٢٥٣) وَأَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٢/١٣٢، ١٥٣) وَابْنُ

حِبَّانَ (٦٠٧ رَقْمُ ٢٤٤٩-مَوَارِدُ) وَالْحَاكِمُ (٤/٢٥٧)

وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي « شُعَبِ الْإِيمَانِ » .

(٢١) رَاجَعَ الْخَبَرَ فِي « الْبَخَارِيِّ » فِي مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ (٤/٢٤٧) وَفِي

التفسير (١٨-١٧/٦، ٢٠٨/٥)

وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْإِيمَانِ (١/٥٤٠، ٣٩٤) وَأَحْمَدُ فِي « الْمُسْنَدِ » (٥/٤٣٣) .

(٢٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي الْجَنَائِزِ (٢/٩٧) وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْجَنَائِزِ أَيْضًا (٣/٤٧٤ رَقْمُ ٣٠٩٥) وَأَحْمَدُ

فِي « الْمُسْنَدِ » (٣/١٧٥، ٢٢٧، ٢٨٠) وَأَبُو يَعْلَى فِي « مُسْنَدِهِ » (٦/٩٣ رَقْمُ ٣٣٥٠) وَالْبَيْهَقِيُّ فِي

الْجَنَائِزِ (٣/٣٨٣) .

(٢٣) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (سُورَةُ الزَّمْرِ ٣٩/٥٣) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾^(٢٤)

فَقِيْدَ الْمَغْفِرَةِ بِمَادُونَ الشَّرِكِ وَعَلَّقَهَا عَلَى الْمَشِيئَةِ وَهَنَاكَ أَطْلَقَ وَعَمَّمَ فَدَلَّ هَذَا التَّقْيِيدُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى أَنَّ هَذَا فِي حَقِّ غَيْرِ التَّائِبِ ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ أَهْلُ السَّنَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى جَوَازِ الْمَغْفِرَةِ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ فِي الْجُمْلَةِ خِلَافًا لِمَنْ أَوْجَبَ نَقْوَذَ الْوَعِيدِ بِهِمْ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَإِنْ كَانَ الْمُتَخَالِفُونَ لَهُمْ قَدْ أَسْرَفَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمَرْجئةِ حَتَّى تَوَقَّفُوا فِي لِحُوقِ الْوَعِيدِ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ كَمَا يُذَكِّرُ عَنْ غُلَاتِهِمْ أَنَّهُمْ نَفَّوْهُ مُطْلَقًا ، وَدِينَ اللَّهَ وَسَطً بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ؛ وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ مَعَ اتِّفَاقِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأُمَّتِهَا مُتَطَابِقَةً عَلَى أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مَنْ يُعَذَّبُ ، وَانَّهُ لَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ .

النوع الثاني من المغفرة العامة التي دل عليها قوله :
«يَا عِبَادِي ! أَنْتُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ
الدُّنُوبَ جَمِيعًا»

المغفرة بمعنى تخفيف العذاب أو بمعنى تأخيرهِ إلى أجل مسمى ؛ وهذا عامٌّ مُطْلَقًا ولهذا شَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَبِي طَالِبٍ مَعَ مَوْتِهِ عَلَى الشَّرِكِ فَقِيلَ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ حَتَّى جُعِلَ فِي ضَحَضَاحٍ مِنْ نَارٍ فِي قَدَمَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ قَالَ : «وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(٢٥) .

(٢٤) سورة النساء (٤/٤٨، ١١٦) .

(٢٥) راجع البخارى فى مناقب الأنصار (٤/٢٤٧) وفى الأدب (٧/١٣١) وفى الرقاق (٧/٢٠٣)

ومسلم فى الإيمان (١/١٩٤-١٩٥) رقم ٣٥٧-٣٦٠ وأحمد فى «المسند» (١/٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠؛

٩/٣، ٥٠، ٥٥) .

وعلى هذا المعنى دل قوله سبحانه :
﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا
مِنْ دَابَّةٍ ﴾ (٢٦)

﴿ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ
دَابَّةٍ ﴾ (٢٧)

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٢٨)



(٢٦) سورة فاطر (٤٥/٣٥) .

(٢٧) سورة النحل (٦١/١٦) .

(٢٨) سورة الشورى (٣٠/٤٢) .

فصل

وأما قوله عز وجل :
« يَا عِبَادِي ! إِنَّكُمْ لَن تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي ، وَلَن تَبْلُغُوا
نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي »

فانه هو بَيِّنَ بذلك انه ليس هو فيما يُحْسِنُ به اليهم من اجابة
الدعوات وغفران الزَّلَّاتِ بالمستعيض بذلك منهم جلبَ منفعةٍ أو دفع
مضرةٍ ، كما هي عادة المخلوق الذي يُعْطَى غيره نفعا ليُكَافِئَه عليه
بنفع ، أو يدفع عنه ضررا ليتَّقَى بذلك ضرره فقال :
« انكم لن تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، وَلَن تَبْلُغُوا ضُرِّي
فتَضُرُّونِي »

فلست إذا اخصمكم بهداية المستهدى وكفاية المستكفى المستطعم
والمستكسى بالذى أطلب أن تنفعوني ، ولا أنا إذا غفرت خطاياكم
بالليل والنهار أتقى بذلك أن تضروني ، فانكم لن تَبْلُغُوا نَفْعِي
فتنفعوني ، ولن تَبْلُغُوا ضُرِّي فتضروني . إذ هم عاجزون عن ذلك بل
ما يقدرون عليه من الفعل لا يقدرون عليه إلا بتقديره وتديره
فكيف بما لا يقدرون عليه ؟ فكيف بالغنى الصمد الذى يمتنع عليه
أن يستحق من غيره نفعا أو ضرا ؟

وهذا الكلام كما يبين أن ما يفعله بهم من جلب المنافع ودفع المضار فانهم لن يبلغوا أن يفعلوا به مثل ذلك ، فكذلك يتضمن أن ما يأمرهم به من الطاعات وما ينهاهم عنه من السيئات ، فإنه لا يتضمن استجلاب نفعهم كأمر السيد لعبده ، أو الوالد لولده ، والأمير لرعيته ونحو ذلك ، ولادفع مضرتهم كنهى هؤلاء أو غيرهم لبعض الناس عن مضرتهم فإن المخلوقين يبلغ بعضهم نفع بعض ومضرة بعض وكانوا في أمرهم ونهيهم قديكونون كذلك ؛ والخالق سبحانه مقدس عن ذلك فبين تنزيهه عن حقوق نفعهم وضرم في احسانه اليهم بما يكون من أفعاله بهم وأوامره لهم .

قال قتادة : ان الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته اليهم ولانهاهم عما نهاهم عنه بخلا به عليهم ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم .

* * * * *

فصل

ولهذا ذكر هذين الأصلين بعد هذا فذكر أن برّهم وفجورهم الذى هو طاعتهم ومعصيتهم لا يزيد في ملكه ، ولا ينقص ، وأن إعطاءه أيّاهم غاية ما يسألونه نسبتّه الى ما عنده أدنى نسبة . وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من يزداد ملكه بطاعة الرعية وينقص ملكه بالمعصية ؛ وإذا أعطى الناس ما يسألونه أنقد ما عنده ولم يُغنهم . وهم في ذلك يبلغون مضرّته ومنفعته ، وهو يفعل ما يفعله من احسان وعفو وأمر ونهى لرجاء المنفعة وخوف المصرة فقال :

« يَا عِبَادِي ! لو أنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجَنِّكُمْ كانوا على أَتَقَى قلب رجلٍ منكم ما زادَ ذلك في ملكي شيئاً .
يَا عِبَادِي ! لو أنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُم وَإِنْسَكُمْ وَجَنِّكُمْ كانوا على أفجرِ قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً »

هو قدرته على التصرف فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم ، وتنقص بقلّة المطيعين لهم فإنَّ ملكه متعلق بنفسه ، وهو خالق كلِّ شيء وربُّه ومليكه ، وهو الذى يُؤْتى الملك من يشاء ، وينزع الملك من يشاء .

والملكُ قد يُراد به القدرة على التصرف والتدبير ؛ ويراد به نفسُ التدبير والتصرف ؛ ويراد به المملوك نفسه الذى هو محل التدبير ؛

ويراد به ذلك كُلُّه . وبكُلِّ حال فليس بُرُّ الأبرار وفجورُ الفُجَّار
 موجبا لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه ، بل هو مشيئته وقدرته يخلقُ
 ما يشاء . فلو شاء أن يخلقَ مع فجور الفُجَّار ما شاء لم يمنعه من ذلك
 مانعٌ ، كما يمنع الملوك فجورُ رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه
 من ذلك . ولو شاء أن لا يخلقَ مع بر الأبرار شيئا مما خلقه لم يكن بُرُّهم
 مُحوجًا له الى ذلك ولا معينًا له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة
 الرعايا المطيعين .

* * * * *

فصل

ثم ذكر حالهم في النوعين : سؤال بره وطاعة أمره اللذين ذكر
هما في الحديث حيث ذكر الاستهداء والاستطعام والاستكساء وذكر
الغفران والبر والفجور فقال :

« لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا فِي صَعِيدٍ
وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقُصُّ
ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا دَخَلَ
الْبَحْرَ »

والخِيطُ والمِخِيطُ : ما يَخِيطُ به إِذَ الفِعَالِ والمِفْعَلِ والمِفْعَالِ من
صَيَغِ الآلَاتِ الَّتِي يَفْعَلُ بِهَا كَالسَّعْرِ وَالْحِلَابِ وَالْمِنْشَارِ .

فَبَيَّنَ أَن جَمِيعَ الْخَلَائِقِ إِذَا سَأَلُوا وَهَمَّ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَزَمَانٍ وَاحِدٍ
فَأَعْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَسْأَلَتَهُ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدَهُ إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ
الْخَيْطُ — وَهِيَ الْإِبْرَةُ — إِذَا غُمِسَ فِي الْبَحْرِ .

وقوله ﴿ لَمْ يَنْقُصْ مِمَّا عِنْدِي ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَدُلُّ
عَلَى أَنَّ عِنْدَهُ أُمُورًا مَوْجُودَةً يُعْطِيهِمْ مِنْهَا مَا سَأَلُوهُ آيَاهُ ، وَعَلَى هَذَا
فَيُقَالُ لَفْظُ «النَّقص» عَلَى حَالِهِ ، لِأَنَّ الْأَعْطَاءَ مِنَ الْكَثِيرِ وَإِنْ كَانَ

قليلا فلا بُدَّ أن ينقصه شيئا مَّا . ومن رواه «لم ينقص من ملكي» يُحمل على ما عنده كما في هذا اللفظ . فان قوله «مما عندي» فيه تخصيص ليس هو في قوله «من ملكي» .

وقد يُقال المُعطى أما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها أو صفات قائمة بغيرها ؛ فأما الأعيان فقد تُنقل من محل إلى محل فيظهر النقص في المحل الأول .

وأما الصفات فلا تُنقل من محلها وان وجد نظيرها في محل آخر كما يوجد نظير علم المُعلِّم في قلب المتعلم من غير زوال علم المعلم ، وكما يتكلم المتكلم بكلام المتكلم قبله من غير انتقال كلام المتكلم الأول إلى الثاني . وعلى هذا فالصفات لا تنقص مما عنده شيئا وهى من المسئول كالمُهدى .

وقد يجاب عن هذا بأنه هو من الممكن في بعض الصفات أن لا يثبت مثلها في المحل الثاني حتى تزول عن الأول كاللون الذى يَنْقُصُ وكالروائح التى تعبق بمكان وتزول كما دعا^(١) النبي ﷺ على حُمى المدينة أن تنقل إلى مهبعة وهى الجحفة .

وهل مثل هذا الانتقال بانتقال عين العرض الأول أو بوجود مثله من غير انتقال عينه فيه للناس قولان ؛ إذ منهم من يُجوز انتقال

(١) فقد روى أن جو المدينة لم يوافق طبائع المهاجرين فرض عدد منهم فدعا النبي ﷺ : اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحَبِّنا مكة أو أشَدَّ ، وصَحَّحها ، وبارك لنا في صاعها ومَدَّها ، وانقل حَمَاهَا فاجعلها بالجحفة .

رواه البخارى في فضائل المدينة (٢٢٥/٢) وفي مناقب الأنصار (٢٦٤/٤) وفي المرضى (١١/٧) وفي الدعوات (١٦٠/٧) ومسلم في الحج (١٠٢/١ رقم ٤٨٠) ومالك في الموطأ (٨٩٠-٨٩١) وأحمد في «المسند» (٥٦٧/٦) (٢٦٠) .

الاعراض بل من يجوز أن تجعل الأعراض أعياناً كما هو قول ضرار
والنجار وأصحابها كبرغوث وحفص الفرد . لكن ان قيل هو بوجود
مثله من غير انتقال عينه فذلك يكون مع استحالة العرض الأول
وفناؤه فيعدم عن ذلك المحل ويوجد مثله في المحل الثاني .

والقول الثاني أن لفظ النقص هنا كلفظ النقص في حديث موسى
والخضر الذي في الصحيحين^(٢) من حديث ابن عباس عن أبي بن
كعب عن النبي ﷺ وفيه أن الخضر قال لموسى لما وقع عصفور على
قارب السفينة فنقر في البحر فقال :

« يَا مُوسَى ! مَا تَقْصَّ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا
تَقْصَّ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ »

ومن المعلوم أن نفس علم الله القائم بنفسه لا يزول منه شيء بتعلم
العباد ، وإنما المقصود أن نسبة علمي وعلمك الى علم الله كنسبة ما علق
بمنقار العصفور الى البحر ومن هذا الباب كون العلم يُورث كقوله :
« الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ »^(٣)

ومنه قوله :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾^(٤)

(٢) أخرجه البخارى في العلم (٤٠-٣٨/١) وفي أحاديث الأنبياء (١٢٧/٤-١٢٩) وفي
التفسير (٢٣٥-٢٣٤/٥) ومسلم في الفضائل (١٨٤٧/٢-١٨٥٠ رقم ١٧٠)
وأخرجه الترمذى في التفسير (٣٠٩/٥-٣١٢ رقم ٣١٤٩٩) وابن جرير في
تفسيره (٢٧٩-٢٧٨/١٥) .

(٣) جزء من حديث أخرجه أبوداود في العلم (٥٧/٤-٥٨ رقم ٣٦٤١) والترمذى في العلم
أيضاً (٤٨/٥ رقم ٢٦٨٢) وابن ماجه في المقدمة (٨١/١ رقم ٢٢٣) وأخرجه البيهقى في
«شعب الإيمان» (١٥٧٣ رقم) وانظر بقية التخريج فيه .

(٤) سورة النمل (١٦/٢٧) .

ومنه توريث الكتاب أيضا كقوله :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾^(٥)

ومثل هذه العبارة من النقص ونحوه تستعمل في هذا وإن كان العلم الأول ثابتا كما قال سعيد بن المسيب لقتادة — وقد أقام عنده أسبوعا سأل فيه مسائل عظيمة حتى عجب من حفظه وقال : نَزَفْتَنِي يَا أَعْمَى^(٦) .

وانزاف القلب^(٧) ونحوه هو رفع ما فيه بحيث لا يبقى فيه شيء . ومعلوم أن قتادة لو تعلم جميع علم سعيد لم يزل علمه من قلبه كما يزول الماء من القلب ، لكن قديقال : التعليم انما يكون بالكلام والكلام يحتاج الى حركة وغيرها مما يكون بالحل ويزول عنه ولهذا يوصف بأنه يخرج من المتكلم كما قال تعالى :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا ﴾^(٨)

ويقال : قد أخرج العالم هذا الحديث ولم يخرج هذا ، فاذا كان تعليم العلم بالكلام المستلزم زوال بعض ما يقوم بالحل وهذا نزيفٌ وخروج ، كان كلام سعيد بن المسيب على حقيقته . ومضمونه أنه في تلك السبع الليالي من كثرة ما أجابه وكلمه ففارقه أمورٌ قامت به من حركات وأصوات ، بل ومن صفات قائمة بالنفس كان ذلك نزيفا .

(٥) سورة فاطر (٣٥/٣٢) .

(٦) ذكره الذهبي في «السير» (٢٧١/٥) في ترجمة قتادة .

(٧) راجع «لسان العرب» (نزف) .

(٨) سورة الكهف (١٨/٥) .

ومما يقوى هذا المعنى أن الإنسان وإن كان علمه في نفسه فليس هو أمراً لازماً للنفس لزوم الألوان للمتلونات ، بل قديزهل الإنسان عنه ويغفل ، وقد ينساه ثم يذكره فهو شيء يحضر تارة ويغيب أخرى ؛ وإذا تكلم به الإنسان وعلمه فقد تكل النفس (تعي حتى لا يقوى على استحضاره إلا بعد مدة فتكون في تلك الحال خالية عن كمال تحققه واستحضاره الذي يكون به العالم عالماً بالنعيل ، وإن لم يكن نفس مازال هو بعينه القائم في نفس السائل والمستمع . ومن قال هذا يقول كون التعليم يرسخ العلم من وجه لا ينافي ما ذكرناه . وإذا كان مثل هذا النقص والنزيف معقولا في علم العباد كان استعمال لفظ النقص في علم الله بناء على اللغة المعتادة في مثل ذلك ، وإن كان هو سبحانه منزها عن اتصافه بضد العلم بوجه من الوجوه أو عن زوال علمه عنه . لكن في قيام أفعال به وحركات نزاع بين الناس بين المسلمين وغيرهم . وتحقيق الأمر أن المراد «مأخذ علمي وعلمك من علم الله» و«مانال علمي وعلمك من علم الله» و«مأحاط علمي وعلمك من علم الله» كما قال :

﴿ وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾^(٩)

إلا كانتقص أو أخذ أو نال هذا العصفور من هذا البحر أى نسبة هذا الى هذا كنسبة هذا الى هذا ، وإن كان المشبه به جسما ينتقل من محل الى محل ، ويزول عن المحل الأول . وليس المشبه كذلك فان هذا الفرق هو فرق ظاهر يعلمه المستمع من غير التباس كما قال ﷺ :

« إِنْكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ »^(١٠)

(٩) سورة البقرة ٢٨/٢٥٥ .

(١٠) حديث مشهور أخرجه البخارى (١٣٨/١) ومسلم (١٦٣/١-١٦٦) و

فشبه الرؤية بالرؤية ، وهى وان كانت متعلقة بالمرئى فى
الرؤية المشبهة ، والرؤية المشبه بها لكن قد علم المستمعون أن المرئى
ليس مثل المرئى ؛ فكذلك هنا شبه النقص بالنقص ، وان كان كل
من الناقص والمنقوص والمنقوص منه المشبه به .

ولهذا كلُّ أحد يعلم أن المُعلِّم لا يزول علمه بالتعليم ، بل يشبهونه
بضوء السراج الذى يحدث يقتبس منه كلُّ أحد ، ويأخذون ماشاءوا
من الشهب وهو باقٍ بحاله ، وهذا تمثيل مطابقٌ ، فان المستوقد من
السراج يحدث الله فى قتيلته أو وقوده نارا من جنس تلك النار ،
وان كان قديقال انها تستحيل عن ذلك الهواء مع أن النار الأولى
باقية . كذلك المتعلم يجعل فى قلبه مثل علم المُعلِّم مع بقاء علم المعلم .

ولهذا قال على رضى الله عنه : العلم يزكو على العمل أو قال على
التعليم والمال ينقصه النفقة .

وعلى هذا فيقال فى حديث أبى ذر ان قوله « ماعندى » وقوله
« من ملكى » هو من هذا الباب وحينئذ فله وجهان :

أحدهما أن يكون ما أعطاهم خارجا عن مسمى ملكه ومسمى
ماعنده كما أن علم الله لا يدخل فيه نفس علم موسى والخضر .

والثانى أن يقال بل لفظ الملك وما عنده أن يتناول كل شئ
وما أعطاهم فهو جزء من ملكه وما عنده ولكن نسبته الى الجملة هذم
النسبة الحقيرة .

ومما يحقق هذا القول الثانى أن الترمذى روى هذا الحديث من
طريق عبدالرحمن بن غنم عن أبى ذر مرفوعا فيه :

« لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ وَرَطَّبَكُمْ وَيَسَابَسَكُمْ
سَأَلُونِي حَتَّى تَنْتَهِيَ مَسْأَلَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ
مَا سَأَلُونِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَغَرَزِ إِبرَةٍ لَوْ غَمَسَهَا
أَحَدُكُمْ فِي الْبَحْرِ ، وَذَلِكَ أَنِّي جَوَادٌّ ، مَاجِدٌ ، وَاجِدٌ ،
عَطَائِي كَلَامٌ ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِنَّمَا أَمْرِي لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ
أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »

فذكر سبحانه أن عطائه كلام ، وعذابه كلام يدل على أنه هو أراد
بقوله « من ملكي » و« مما عندي » أي من مقدوري فيكون هذا في
القدرة كحديث الخضر في العلم والله أعلم .

ويؤيد ذلك أن في اللفظ الآخر الذي في نسخة أبي مسهر
« لم ينقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص البحر » وهذا قديقال فيه
أنه استثناء منقطع أي لم ينقص من ملكي شيئا لكن يكون حاله حال
هذه النسبة وقديقال بل هو تام والمعنى على ما سبق .

* * * * *

...the ...
...the ...
...the ...
...the ...
...the ...

...the ...
...the ...
...the ...

...the ...
...the ...
...the ...
...the ...

فصل

ثم ختمه بتحقيق ما بينه فيه من عدله وإحسانه فقال :
« يَا عِبَادِي ! إِنَّهَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أَوْقِيكُمْ
إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ
فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »

فَبَيَّنَ أَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَى عِبَادِهِ فِي الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ إِحْسَانًا
يَسْتَحِقُّ بِهِ الْحَمْدَ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُنْعِمُ بِالْأَمْرِ بِهَا وَالْإِرْشَادُ إِلَيْهَا وَالْإِعَانَةُ عَلَيْهَا
ثُمَّ أَحْصَاهَا ثُمَّ تَوْفِيَةَ جَزَائِهَا ، فَكُلُّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ وَإِحْسَانٌ إِذْ كُلُّ
نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ ، وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قَدْ كَتَبَ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، وَكَانَ حَقًّا عَلَيْهِ نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ — كَمَا تَقْدُمُ بَيَانُهُ — فَلَيْسَ
وَجُوبُ ذَلِكَ كَوَجُوبِ حَقِّكَ النَّاسِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ الَّذِي يَكُونُ
عَدْلًا لِأَفْضَالِهِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ لِكُونِ بَعْضِ النَّاسِ أَحْسَنَ إِلَى
بَعْضٍ ، فَاسْتَحَقَّ الْمَعَاوِضَةَ ، وَكَانَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ بِقُدْرَةِ الْمُحْسِنِ دُونَ
الْمُحْسَنِ إِلَيْهِ . وَلِهَذَا لَمْ يَكُنِ الْمُتَعَاوِضَانِ لِيُخَصَّ أَحَدُهُمَا بِالتَّفْضِيلِ عَلَى
الْآخَرِ لِتَكَافُئِهِمَا ، وَهُوَ قَدَيِّينَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْعِبَادَ لَمْ يَبْلُغُوا ضُرَّهُ
فِيضْرُّوهُ ، وَلَنْ يَبْلُغُوا نَفْعَهُ فَيَنْفَعُوهُ ، فَامْتَنَعَ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ
مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ بَلْ هُوَ الَّذِي أَحَقَّ الْحَقَّ عَلَى نَفْسِهِ بِكَلِمَاتِهِ ،

فهو المحسن بالإحسان ، وبإحقاقه وكتابته على نفسه فهو في كتابة الرحمة على نفسه وإحقاقه نصرَ عباده المؤمنين ونحو ذلك محسنٌ احساناً مع احسان ، فليتدبر اللبيب هذه التفاصيل التي يتبين بها فصل الخطاب في هذه المواضع التي عظم فيها الاضطراب : فمن بين موجب على ربه بالمنع أن يكون محسناً مفضلًا ، ومن بين مسوٍ بين عدله واحسانه وماتزّه عنه من الظلم والعدوان ؛ وجاعل الجميع نوعاً واحداً وكل ذلك حيداً عن سنن الصراط المستقيم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وكا يبين أنه محسن في الحسنات متيم احسانه باحصائها ، والجزاء عليها ، يبين أنه عادل في الجزاء على السيئات فقال :
« ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »

كأتقدم بيانه في مثل قوله :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾^(١)

وعلى هذا الأصل استقرت الشريعة الموافقة لفطرة الله التي فطر الناس عليها كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري^(٢) عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال :

« سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي ، وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ

(١) سورة هود (١٠١/١١) .

(٢) في الدعوات من « صحيحه » (١٤٥/٧) وفي « الأدب المفرد » (١٦٢ رقم ٦٢٠) ورواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٥٨ رقم ٦٥٨/٢) وقد استوفينا تخريجه فيه فراجعه .

بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي ، فَاعْفُرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »

ففى قوله « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ » اعترافٌ بنعمته عليه فى الحسنات وغيرها ، وقوله « وَأَبُوءُ بِذَنْبِي » اعترافٌ منه بأنه مُذْنِبٌ ، ظالمٌ لنفسه . وبهذا يصير العبدُ شكورًا لربه ، مستغفرًا لذنبه فيستوجب مزيدَ الخير وغفرانَ الشر من الشُّكُورِ الغفور الذى يَشْكُرُ اليسيرَ من العمل ، ويغفرُ الكثيرَ من الزلل .

وهنا انقسمَ الناسُ ثلاثة أقسام فى اضافة الحسنات والسيئات التى هى الطاعات والمعاصى الى ربهم وإلى نفوسهم : فشرُّهم الذى إذا أساءَ أضاف ذلك الى القدر ، واعتذر بأن القدر سبقَ بذلك ، وأنه لا خروجَ له عن القدر ، فركبَ الحجةَ على ربه فى ظلمه لنفسه ؛ وإن أحسنَ أضاف ذلك الى نفسه ونسبَ نعمة الله عليه فى تيسيره لليسرى . وهذا ليس مذهب طائفة من بنى آدم ولكنه حالُ شرار الجاهلين الظالمين الذين لا حفظوا حدودَ الأمر والنهى ، ولا شهدوا حقيقة القضاء والقدر . كما قال فيهم الشيخ أبو الفرج بن الجوزى : أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ؛ أى مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وخير الأقسام — وهو القسم المشروع وهو الحق الذى جاءت به الشريعة — : أنه إذا أحسن شكرَ نعمة الله عليه وحمده إذ أنعمَ عليه بأن جعله مُحسنًا ولم يجعله مُسيئًا ، فإنه فقيرٌ محتاجٌ فى ذاته وصفاته وجميع حركاته وسكناته الى ربه ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فلو لم يَهْدِهِ لم يَهْتِدِ ، كما قال أهل الجنة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا

أَنْ هَدَانَا اللَّهُ تَقْدَجَاعَتْ رُسُلُ رَبَّنَا بِالْحَقِّ ﴾^(٣)

وإذا أساء اعترف بذنبه واستغفر ربه وتاب منه ، وكان كأييه آدم
الذى : قَالَ

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٤)

ولم يكن كإبليس الذى قال :

﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ
أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾^(٥)

ولم يحتجّ بالقدر على ترك مأمور ، ولا فعل محظور مع ايمانه بالقدر
خيره وشره ، وأن الله خالق كل شىء وربّه ومليكه ، وأنه ماشاء الله
كان . وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ونحو
ذلك ، وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله فى قوله فى هذا الحديث
الصحيح :

« فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ
فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »

ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب الى النفس مع العلم بان
الله خالق أفعال العباد فيه أسرار ليس هذا موضعها .

ومع هذا فقلوه تعالى :

﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

= (٣) سورة الأعراف (٤٣/٧) .

(٤) نفس السورة (٢٣/٧) .

(٥) سورة الحجر (٣٩/١٥-٤٠) . وفى الفتاوى والمنيرية «فما أغويتنى» خطأ . ومثل هذه
الأخطاء فى نقل الآيات القرآنية كثيرة فى مجموع الفتاوى المطبوع .

وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ
 اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا
 مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ
 نَفْسِكَ ﴿٦﴾

ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعة والمعاصي
 كما يظنّه كثير من الناس حتى يُحرّف بعضهم القرآن ويقرأ « فَمَنْ
 نَفْسُكَ »^(٧) ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة ،
 وحتى يضر^(٨) بعضهم القول على وجه الإنكار له وهو قول الله الحق
 فيجعل قول الله الصدق الذي يُحمد ويَرْضَى قولاً للكفار يُكذب به
 ويُذمّ ويسخط بالاضمار الباطل الذي يدّعيه من غير أن يكون في
 السياق ما يدل عليه .

ثم ان من جهل هؤلاء ظنهم أنّ في هذه الآية حجة للقدريّة
 واحتجاج بعض القدريّة بها . وذلك أنه لاخلاف بين الناس في أن
 الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدريّة . فمن قال ان العبد هو
 الموجد لفعله دون الله أو هو الخالق لفعله ، وأن الله لم يخلق أفعال
 العباد فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية . ومن أثبت خلق الأفعال ،
 وأثبت الجبر أو نفاه أو أمسك عن نفيه وإثباته مطلقاً ، وفصل المعنى
 أو لم يفصله فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية ؛ فتبيّن أن ادخال هذه
 الآية في القدر في غاية الجهالة .

(٦) سورة النساء (٤/٧٨-٧٩) .

(٧) وانظر «تفسير ابن الجوزي» (١٣٨/٢) والقرطبي (٢٨٥/٥) .

(٨) فذكر ابن الجوزي ان ابن الأنباري قال : المعنى : أفن نفسك ؟ فأضمرت الف
 الاستفهام .

وذلك أن « الحسنات والسيئات » في الآية المراد به المسارّ والمضارّ
دون الطاعات والمعاصي كما في قوله تعالى :

﴿ وَبَلَّوْنَاھُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾^(٩)

وهو الشر والخير في قوله :

﴿ وَنَبِّلُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾^(١٠)

وكذلك قوله :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾^(١١)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ
ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾^(١٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ

(٩) سورة الأعراف (١٦٨/٧) .

(١٠) سورة الأنبياء (٣٥/٢١) .

(١١) سورة آل عمران (١٢٠/٣) .

(١٢) هذا مثال آخر للتخليط الذي يوجد في مجموع الفتاوى المطبوع ، ولم يتنبه لها
الذين اقتسبوا منه ، وجردوا منه رسائل شيخ الإسلام للطبع .

فهناك آيتان في هذا المعنى : الأول قوله تعالى :
﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ (سورة
هود ١٠/١١)

والأخرى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ (سورة فصلت ٥٠/٤١) .

وَالضَّرَاءَ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ
حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ ﴿١٤﴾

فهذه حال فرعون وملأه مع موسى ومن معه كحال الكفار
والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه :

إذا أصابهم نعمة وخير قالوا لنا هذه أو قالوا هذه من
عند الله وإن أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبي والمؤمنين
وقالوا هذه بذنوبهم .

وانما هو بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين . وهو سبحانه ذكر هذا
في بيان حال الناكين عن الجهاد الذين يلومون المؤمنين على الجهاد
فإذا أصابهم نصر ونحوه قالوا هذا من عند الله وإن أصابتهم محنة قالوا :
هذه من عند هذا الذي جاءنا بالأمر والنهي والجهاد قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ﴿١٥﴾ الى قوله ﴿ وَ
إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ ﴾ الى قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ

(١٣) سورة الأعراف (٩٤/٧-٩٥) .

(١٤) نفس السورة (١٣١/٧) وفي الفتاوى والمنيرية «واذا جاءتهم» .

(١٥) سورة النساء (٧٩-٧١/٤) .

كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا
الْقِتَالَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ ﴾ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمْ الْمَوْتُ ﴿

﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أَى هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ ﴿ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ
عِنْدِكَ ﴿ أَى بِسَبَبِ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ
مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ مِنْ نِعْمَةٍ ﴿ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ
فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أَى فَبِذَنْبِكَ .

كما قال :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ^(١٦)

وقال :

﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(١٧)

وأما القسم الثالث فى هذا الباب فهم قوم لَبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَهُمْ
بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَبَيْنَ شَرَارِ النَّاسِ وَهُمْ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدْرِ
بِالْبَاطِلِ فَقَوْمٌ يَرُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَهْدُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُضِلُّونَهَا وَيُوجِبُونَ
لَهَا فِعْلَ الطَّاعَةِ وَفِعْلَ الْمَعْصِيَةِ بِغَيْرِ إِعَانَةٍ مِنْهُ وَتَوْفِيقٍ لِلطَّاعَةِ ، وَلَا
خِذْلَانٍ مِنْهُ فِي الْمَعْصِيَةِ . وَقَوْمٌ لَا يَثْبِتُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِعْلًا وَلَا قُدْرَةَ
وَلَا أَمْرًا . ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَبْخُلُ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَيَكُونُ أَكْفَرُ

(١٦) سورة الشورى (٤٢/٣٠)

(١٧) أيضا (٤٨/٤٢) .

الخلق . وهم فى احتجاجهم بالقدر متناقضون إذ لا بُدَّ من فعل يُحبُّونه ، وفعل يبغضونه ولا بُدَّ لهم ولكل أحد من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين فاذا جعلوا الحسنات والسيئات سواسية لم يمكنهم أن يذمُّوا أحدا ، ولا يدفعوا ظالما ولا يقابلوا مسيئا ، وإن يبيحوا للناس من أنفسهم كُلَّ ما يشتهيهِ مشتهٍ ونحو ذلك من الأمور التى لا يعيش عليها بنو آدم إذ هم مُضطرون إلى شرع فيه أمر ونهى أعظم من اضطرارهم إلى الأكل واللباس .

وهذا باب واسع لشرحه موضع غير هذا وانما نبهنا على ما فى الحديث من الكلمات الجامعة والقواعد النافعة بنكت مختصرة تُنبِّهه الفاضل على ما فى الحقائق من الجوامع والفوارق التى تفصل بين الحق والباطل فى هذه المضائق بحسب ما احتملته أوراق السائل .

والله ينفعنا وسائر اخواننا المؤمنين بما علَّمناه ، ويعلِّمنا ما ينفعنا ، ويزيدنا علما ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ منه إلا إليه . له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن . واستغفر الله العظيم لى وجميع اخواننا المؤمنين والمحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما .



فهرس المباحت

٥	○ كلمة الناشر
٧	○ تقديم
	○ شرح حديث أبي ذر رضى الله عنه لشيخ الإسلام ابن
٢٧	تمية رحمه الله
	○ فصل : قوله ﴿ وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا
٥٥	فَلَا تَتَظَالَمُوا ﴾
٧٥	○ فصل
٨٧	○ فصل
٩٧	○ فصل
١٠٩	○ فصل
١١١	○ فصل
١١٣	○ فصل
١٢١	○ فصل

من مطبوعات الدارالسلفية

١ - « الجامع لشعب الإيمان »

لشيخ السنة الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين
البيهقي (م ٤٥٨هـ)

موسوعة حديثة لا يستغنى عنها باحث ولا طالب ،
تتضمن الأحاديث النبوية وآثار السلف التي تلقى ضوءاً
على « شعب الإيمان » صدر منها أربعة أجزاء . والخامس
تحت الطبع .

٢ - فهرس « المصنف للأحاديث والآثار »

للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة العبسي الكوفي

في مجلدين تشتمل على فهرس أبجدي للأحاديث والآثار ،
والأعلام الرواة الواردة في « المصنف » لابن أبي شيبة
تصدر قريباً .

٣ - فهرس الأحاديث والآثار الواردة في « المصنف »

للمحدث عبدالرزاق بن همام الصنعاني

يصدر قريباً .